

مدح الساسة والحكام

بين حافظ والزبيرى

دكتور

عبد الناصر محمد السعيد

الأستاذ المساعد فى كلية اللغة العربية

بالمنصورة

الإهداء

إلى تلك البقعة العربية التــــى ســعدت بــالتدريس فــى جامعتـــها لمدة عامين دراســـيين.

إلى الأرض والرجـــال

إلى اليمن الشـــقيق

دكتــــــور

عبد الناصر محمــــد الســعيد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد

فقد سعدت بالتدريس فى جامعة صنعاء لمدة عامين دراسيين ، أتيح لى وقتها الاطلاع على نتاج الشعراء اليمنيين فى العصر الحديث ، ودور الشعر فى الحياة ، الحياة بكل أبعادها السياسية والاجتماعية وغير ذلك. ورأيت الشعر ينتال انثيالا على ألسنة اليمنيين صغاراً وكباراً ، متعلمين وأميين ، فى الشارع وفى السيارة وفى مجالسهم وتجمعاتهم. ولا غرابة فى ذلك وهم أحفاد امرىء القيس.

وقد درست الأدب اليمنى ، فى قاعة الدرس ، وفى تلك الجلسات التى كانت تضمنا فى المساء مع الزملاء من السودان والعراق وفلسطين والأردن وسورية ومع الزملاء اليمنيين والطلاب النجباء ، كم سهرنا وتحاورنا حول الأدب اليمنى والشعراء اليمنيين. وكان لابد وأن يجذبنى إلى فلكه الشاعر محمد محمود الزبيرى ، فرحت أقرأ دواوينه ، وأتعرض لحياته ، وأعيش غربته وتشرده ، فى بلده وبين أهله ، وفى الشطر الجنوبى المحتل ، وفى القاهرة والباكستان وغيرها من البلاد ، وأعيش حياته سجيناً ومشرداً ، ووزيراً وثائراً و مهادناً ، وأقرأ ما كتب عنه بأقلام الآخرين وأتحسس نبض الحب الذى يكنه له أبناء اليمن. ومن هؤلاء الذين كتبوا عنه ، ورصدوا الحياة الأدبية فى اليمن ، الشاعر والأديب الأستاذ الدكتور عبد العزيز المقالح رئيس جامعة صنعاء وقت أن كنت أعمل رئيساً لقسم اللغة العربية بكلية التربية "ذمار"

جامعة صنعاء عام ١٩٩٢م ، فقد كان من أكثر الكتاب إلحاحا على دراسة الزبيرى والاهتمام بشاعريته ، وقد قدم لديوانه بمقدمتين اضافيتين قدم فيهما الزبيرى وسفره.

ومن يقرأ عن الشاعر والثائر الزبيرى يعرف أنه قد مدح الإمام يحيى ، ومدح ولى العهد ، بعدة قصائد ، آملا بهذه المدائح أن يصل إلى قلب الحاكم من أجل الإصلاح ، وراح يهدهده بعدة قصائد علها تطامن من جبروته ويستمع لشعبه ، ولما لم يستجب الحاكم ، انقلب ثائرا مغتربا فى عدن والباكستان والقاهرة. وتحول شعره إلى بركان يزلزل عرش هذا الحاكم وغيره من الظالمين. ومع قلة هذه القصائد ، فقد راح الزبيرى يعتذر عن هذه القصائد اعتذار من ارتكب جرما شنيعا ، حتى توهم من كتب عنه بعد ذلك أن هذه القصائد جرم يعتذر منه ، ومنهم زيد الوزير فى كتابه "دراسات فى الشعر اليمنى القديم والحديث". الذى استنكر هذه المدائح وأكد أن من يمدح الإمام بهذه المدائح لا يستحق لقب شاعر الشعب. لا ليس بشاعر الشعب من توزع شعره بين الكوخ والقصر وبين الطاغية والشعب" وذلك من خلال مقارنة بين حافظ والزبيرى.[1]

وقد تعرض أ.د. عبد العزيز المقالح لهذه القضية فى كتابه "الشعر المعاصر فى اليمن" فأنكر على زيد الوزير هذا الحكم الجائر على الزبيرى فقال "والفرق كبير جدا بين حافظ والزبيرى ، فالأول قد تورط فى مدح الإنجليز ، كما حاول أن ينافس شوقى فى الحصول على لقب شاعر القصر ، وهو لم يتصدر الحركة الوطنية فى بلاده ، بل كان ينأى عن الحياة السياسية ، وفى آخر حياته

---

[1] دراسات فى الشعر اليمنى القديم والحديث. زيد الوزير ص١٨٤.

بخاصة. ومع ذلك ، فلم تمنع هذه المواقف الدارسين من أن يغدقوا عليه هذه الألقاب ومنها "شاعر الشعب" هذا الذى يستنكره زيد الوزير على الزبيرى.[1]

ورأيتنى مدفوعاً إلى قراءة مدح الساسة والحكام عند حافظ إبراهيم ، ومدح الإمام والحكام عند الزبيرى ، قراءة ليس فيها تحيز لحافظ ، ولا غبن للزبيرى لإنصاف هذين الشاعرين.

ولا تخفى منزلة حافظ وشاعريته لكل من ينطق بالعربية أو يشغل نفسه بالدراسات الأدبية. والزبيرى قد لاقى شهرته فى اليمن ، وساعدت ظروف كثيرة على عدم معرفته خارج بلاده ، من هنا سأرانى فى اضطرار إلى أن اعرج على حياة الزبيرى فى إيجاز سريع مع بيان أوجه الشبه بين حافظ والزبيرى ، وذلك فى تمهيد سريع ، ثم ألقى الضوء على مدح الساسة والحكام عند الشاعرين ورأى النقاد.

مع إيمانى على ضرورة التنبيه أن هذا البحث يظلم الشاعرين ويغمط وطنيتهما ودفاعهما عن الوطن ، لأنه يقف عند لحظة واحدة من حياة الشاعرين وهى لحظة الضعف ، أو الاستثناءات كما عبر عنها الزبيرى نفسه عندما قال "على أن معيار الحق فى وزن أفراد الرجال وآدابهم وأشعارهم لا يتجه إلى الاستثناءات والمواقف المؤقتة والجانبية والسطحية ، وإنما ينبغى أن يتجه إلى تقييم الاهتمامات الرئيسية ..." . ولذا ينبغى أن نفصل تماماً بين وطنية الشاعرين ، وبين مدحهما للساسة والحكام.

---

[1] الشعر المعاصر فى اليمن. وعبد العزيز المقالح ص١٠٠.

وأسأل المولى عــز وجــل أن يجنبنــا الذلــل ويلــهمنا الصــواب لخدمة أدبنا ولغتنا آميـــن.

دكتــــور

عبد الناصر محمـــد الســعيد

تمهيد :-

بين الشاعرين :-

ما الذى جمع بين حافظ إبراهيم ، ومحمد محمود الزبيرى ، كلاهما شاعر ، وكلاهما مدح الحكام ، وكلاهما لقب بـ "شاعر الشعب" وإن كان حافظ إبراهيم لقب بهذا اللقب فى مقابلة "شاعر القصر" أحمد شوقى ، ولكنه دائماً إذا ما قيل "أمير الشعراء" لأحمد شوقى ، فحافظ إبراهيم هو "شاعر النيل" كما أن خليل مطران هو "شاعر القطرين" إلى آخر هذه المقارنات.

لكن هذه ليست أوجه الارتباط بين حافظ والزبيرى فقط ، ولكن هناك أوجه التقاء أخرى.

كلاهما قد اشترك فى الثورة :-

ففى سنة ١٨٩٩م حدثت ثورة فى الجيش المصرى بالسودان ، فقد جاهرت فرقة من فرق الجيش السودانى بالعصيان وأخمد الأنجليز تلك الثورة بعد ذلك ، وحاكموا عدداً من زعمائها أمام المجالس العسكرية ، فأحيل منهم ثمانية عشر ضابطاً إلى الاستيداع وأبعدوا عن السودان إلى مصر وكان منهم حافظ[1] وإن كان حافظ قد أشار فى "ليالى سطيح" إلى أنه قد اتهم ظلماً فى ذلك الأمر[2].

---

[1] ديوان حافظ ص٢٥.

[2] ليالى سطيح ص٧٤.

أما الزبيرى فقد قضى فى رحاب كلية دار العلوم بالقاهرة سنتين ١٩٤٠ ، ١٩٤١م كان له نشاطه البارز فى تلك الفترة ، ومن ذلك قصيدته "جماعة الطلبة العرب" التى ألقيت فى حفل الطلاب العرب بالقناطر الخيرية سنة ١٩٤٠م منوهة ومبشرة بتأسيس جماعة الطلبة العرب والتى يقول منها :-

أهلا بروحك يا وئام ومرحبا ** بك يا عروبة كلنا لك فادى

ويقول فى نهايتها :-

ولقد نزعت من الضمير قصيدة ** هى صوت إيمانى وصك جهادى

لو يصبغ الإنشاد لون خديعة ** لأنفت عن نغمى وعن إنشادى

لو خالط الأنفاس ثوب تملق ** لحبست أنفاسى عن الترداد

تسعى القوافى لى فلا أحنى لها ** قلما إذا جاءت بدون مراد

وأكاد أرفضها إذا لم تكن ** نزلت إلى على روى فؤادى[١]

بهذه الروح الثورية عاد الزبيرى إلى اليمن لسنة ١٩٤٠م فاصطدم بالحكم الأمامى ، ونصحه الأصدقاء بالصمت "حينما قدمت إلى اليمن من مصر حوالى عام ١٩٤١م انهالت على نصائح الأصدقاء والأقرباء ، بأن ألزم الصمت والخمول وأغض الطرف عن كل ما أراه من شرور ، واعكف فى عقر دارى ولا أتحرك منه إلا إلى "المقام الشريف" أو أنصار المقام الشريف. وقيل لى إذا أردت

---

[١] الديوان ص٢٧٥.

أن تعيش سعيدا مع أهلك ، وأن تنـــال المرتـــب والوظيفـــة ، فـــلا بـــد أن تتبع هذه التعاليم ، أما إذا رفضت هذه التعـــاليم فـــلا تنتظـــر غـــير بلايـــا ورزايا ومحنا متلاحقـــة.

وقد حذرونى أشد التحذير مـــن أن ألقـــى خطبـــة أو محـــاضرة أو اجتمع بأى فرد مستنير. وفى هذا الجـــو المكفـــهر جاشـــت نفســـى بـــهذه القصيـــدة :-

مت فى ضلوعك يا ضمير ** وادفن حياتك فى الصدور

إياك والإحساس فالـــ ** دنيا العريضة كالصخور

لا تطمئن إلى العدا ** لة فهى بهتان وزور

لا تنسبن إلى الثقا ** فة فهى داعية الثبـــور

حطم دماغك إنـــه ** شر برأسك مســـتطير

حطم فؤادك إنـــه ** يؤذى الخليفة والأمـــير

لا تنطقن الحق فـــهو ** خرافة العصر العزيـــز

لا تنتصر للشـــعب إن ** الشعب مخلوق حقير[1]

---

[1] الديوان ص ٢٨٤.

ومع ذلك لم يسكت الزبيرى ، ولـم يخضـع لنصيحـة الأصدقـاء ومن ثم فقد وجد نفسه ورفاقه فى سـجن "الأهنـوم" سـنة ١٩٤١م.

* وفى حياة الزبيرى ثورة أخرى. فقـد انتقـل إلـى تعـز حيـث صورة ولى العهد تبدو لهم فى أروع صـورة ، مـن مسـاندة للوطنييـن وحرص على الثوار ، وثورة علـى الظـالمين ، فمدحـوه وأملـوا فيـه ، ولكن خاب أملهم ففر الزبيرى إلـى عـدن فـى فـبراير سـنة ١٩٤٤م. "وفى عدن اتخذ الزبيرى ورفاقـه مـن جريـدة "فتـاة الجزيـرة" مرتعـا لأقلامهم ، فكان الشعر والنثر يصبان معا فى مجـرى واحـد يحفـر فـى القلـوب قضيـة بلادهـم أو مأسـاة بلادهـم بتعبـير أدق. كأنمـا وجـد الزبيرى فى شعره بوقا ينفخ فيه فيحدث ضجيجـا هـائل يـهز مضـاجع الغافلين من أبنـاء أمتـه ... وفـى عـدن تأسسـت الجمعيـة اليمانيـة الكبرى برئاسة الزبيرى ... وشبت الثورة اليمنيـة الأولـى فـى السـابع من ربيع الثانى سـنة ١٣٦٧هـ (١٧ فـبراير سـنة ١٩٤٨م) وعـاد الزبيرى إلى صنعاء ليتولـى وزارة المعـارف فـى أول حكومـة ثوريـة باليمن ... وانطلق الزبيرى مع عبـد الله بـن علـى الوزيـر والفضيـل الورتلانى لمقابلة وفد الجامعـة العربيـة برئاسـة عبـد الرحمـن عـزام أمين الجامعة العربيـة ... ولكنـهم لـم يوفقـوا فـى مهمتـهم فعـادوا أدراجهم حانقين ليجدوا الثورة قد وئدت ومطار صنعـاء قـد سـقط فـى يد القبائل الموالية للإمام وولـى عـهده وسـقط المئـات مـن الشـهداء الأبرار. ففر إلى عـدن[1]

---

[1] الزبيرى شاعر اليمن. عبد الستار الحلوجى ص٤٢ بتصرف شديد.

* وما دمنا بصدد الحديث عن الثورات التى اشترك فيها الزبيرى ، وهى فرصة سانحة لإلقاء الضوء على حياة الزبيرى ، فإن ثورة ثالثة قد قادها وحده وفقد فيها حياته. نعم قادها وحده ، ولم تكن موجهة ضد أحد ، وأدع أ.د. المقالح يتحدث عن هذه الثورة التى قامت فى سبتمبر سنة ١٩٦٢م وأسندت إلى الزبيرى وزارة التربية والتعليم ويقدم الزبيرى استقالته من الوزارة فى رمضان سنة ١٣٨٤هـ يناير سنة ١٩٦٥مبعد أن اختلف مع رفاقه وأعلن فى قصيدة "الكارثة" أن روح الإمامة تسرى فى مشاعرهم وإن تغيرت الأشكال والأسس ، وثار الزبيرى ، ثار على رفاقه ونزل إلى الشعب. يقول أ.د. عبد العزيز المقالح "ولعل أبرز هذه المواقف وأكثرها جلاء موقفه بعد ثورة ٢٦ سبتمبر حينما نبذ الكراسى والمناصب وخرج إلى الشعب يواجه الرجعية الخائنة بصدره المفتوح وقلبه الطيب. لقد عز عليه – وهو الذى أفنى زهرة شبابه وأحلى سنوات العمر فى الكفاح ومنازلة الرجعية فى قصورها – عز عليه أن تفكر الرجعية فى الكهوف وعلى رؤوس الجبال لتضلل الشعب وتخدعه عن مصيره ، فى الوقت الذى ينام فيه أصحاب الحق فى مخادعهم العطرة وفى حماية من جيش الجمهورية العربية المتحدة"[1]. ونزل الزبيرى ثائرا على هذا الوضع نزل محتكما إلى الشعب ، كاشفا له أساليب الرجعية ، وكانت آخر ثورة للزبيرى ، فقد دفع حياته بسبب مؤامرة دنئية ، وخر صريعا فى ٣٠ مارس سنة ١٩٦٥م.

---

[1] مقدمة ديوان الزبيرى ص٣٢.

- كلاهما قد ألف كتابا نثريا يتحدث فيه عن هموم الوطن :-

ألف حافظ إبراهيم كتابة النثرى "ليالى سطيح" والكتاب عبارة عن سبع ليال ، يذكر فى كل ليلة موضوعا من الموضوعات ، دار الحديث فى ليلة من الليالى عن الامتيازات الأجنبية والإنجليز ، ودار الحديث فى ليلة أخرى عن الثورة السودانية وما تبعها من حوادث وهكذا[1]. وقد قال زكى مبارك عن هذا الكتاب " ومع هذا لا نستطيع تصور محنة حافظ بأيامه فى السودان إلا إن نظرنا فى كتاب "ليالى سطيح" والرجوع إلى هذا الكتاب مفيد جدا ففيه صفحات هى أقوى وأجمل من كل ما هتف به حافظ فى دنياه ... وقد تكون أعظم ما أثر من الثورة على الاستبداد"[2].

وقد ألف الزبيرى "الخدعة الكبرى" وكتب بحثا عن الإمامة ، ولكن ما يعنينا هنا هو كتابة "مأساة واق الواق" وهى مأساة بلاده ، متنقلا كما تنقل دانتى بين الجحيم والمطهر والفردوس ، منطلقا من مسجد مولانا الحسين ، وهناك فى السماء ، راح يناقش قضية بلاده ، وهناك فى منطقة الأعراف يستقبله وفد من الشهداء اليمنيين من أمثال عبد الوهاب نعمان ، وزيد الموشكى وغيرهم ومن الغريب[3] أنه وصفهم على الأعراف لأنهم لا يستحقون جنة ولا نارا ، لأنهم

---

[1] ليالى سطيح. حافظ إبراهيم ويقع فى ثمان وعشرين ومائة صفحة من القطع الصغير.

[2] حافظ إبراهيم. بقلم زكى مبارك. إعداد كريمة زكى مبارك ص٥١.

[3] أقول من الغريب لأن الموشكى كان من رفاقه الثائرين وقد هدمت داره واستشهد فى سبيل قضية وطنه.

كانوا يمسكون العصا من الوسط ، فلا يشتركون فى النضال ولا يساهمون فى الخيانة[1].

وبطبيعة الحال كان يود الزبيرى أن يحاكم الأمام يحيى ، وأن يرى الشعب مصيره فى هذه الكوميديا ، أو كما سماها بالمأساة ، أو الرحلة إلى الآخرة وقد رمز للأمام يحيى وابنه الإمام أحمد برموز معينة ، ولم يكتف بمحاكمة الإمام وابنه ، وإنما راح يحاكم الخونة من المشايخ والحكام والقضاة والفقهاء الذين يبثون الفرقة بين الشعب وفى النهاية وتحت أقدام هؤلاء جميعا نرى الإمام يحيى فى سرداب سحيق رهيب يموج بجحيم يغلى[2].

ولا ينسى أن يقابل الشهداء فى الجنة ، ليمجد فعالهم ، ثم ينعقد مؤتمر لدراسة مشكلة البلاد ووضع الحلول ، ومناقشة الإمامة وشروطها[3]. وهكذا نرى تشابه هموم الشاعرين ووضع حل لهذه الهموم ومناقشتها. وإن كان الزبيرى قد انطلق فى كتابه من مسجد مولانا الحسين ، وانطلق حافظ من الأهرامات

-كلاهما يندر عنده شعر الغزل:-

خصصت مجلة الكتاب عدد أكتوبر سنة ١٩٤٧ للحديث عن الشاعرين حافظ "وشوقى. ولقد رأينا من فروض الوفاء للشاعرين أن نخص هذا الجزء بهما تحية لروحهما وذكرى ، فقصرنا البحث فى شعرها على أبواب المجلة ، ورغبنا إلى كوكبة من أعلام البيان

---

[1] مأساة واق الواق ص٤٩ وما بعدها.

[2] مأساة واق الواق ص١٠٩ وما بعدها.

[3] مأساة واق الواق ص٢٥١ وما بعدها.

أن يشاركونا فـــى الاحتفـــاء بـــهذه الذكـــرى"[1]. وضمـــن أعـــلام البيـــان كانت بنت الشاطئ التى ساهمت بمقـــال تحـــت عنـــوان "حـــواء الملهمـــة" وقد قالت عن غزل حافظ "وقد رحت أنشـــد غـــزل حـــافظ فراعتنـــى حقـــا قلته وضآلته ، فليس للغزل فى ديوانـــه الضخـــم الـــذى تقـــرب صفحاتـــه من الستمائة صفحة – ســـوى ثـــلاث صفحـــات وبعـــض صفحـــة. ولئـــن كانت شاعرية الشاعر لا تقاس بمقدار ما قـــال فحســـب ، وإنمـــا تقـــاس قبل ذلك بقوة ما قال ، إن شاعرنا فى هـــذا الميـــدان ضعيـــف ضعيـــف ، قد جمع إلى القلة قصر النفـــس وفتـــور الحـــس"[2]. ومـــع اتفاقنـــا مـــع الدكتورة بنت الشاطئ فـــى أن شـــاعرية الشـــاعر لا تقـــاس بمقـــدار مـــا قال ومع مخالفتنا للدكتورة بنـــت الشـــاطئ أيضـــا فـــى اعتبـــار تقســـيم الديوان إلـــى مـــدح وغـــزل وسياســـيات واجتماعيـــات هـــو المعيـــار ، فالغزل موجود فى قصائد أخرى ليست فى بـــاب الغـــزل وإنمـــا هـــى مـــن باب الاجتماعيات وهـــى تلـــك القصيـــدة التـــى اســـتقبل فيـــها الخديـــوى عباس عند عودة سموه من دار الخلافة ، والتى يقـــول فـــى مطلعـــها:

كم تحت أذيال الظلام متيم ** دامى الفؤاد وليله لا يعلم

ما أنت فى دنياك أول عاشق ** راميه لا يحنو ولا يترحم

أهرمتنى يل ليل فى شرخ الصبا ** كم فيك ساعات تشيب وتهرم

لا أنت تقصر لى ولا أنا مقصر ** أتعبتنى وتعبت هل من يحكم

---

(1) مجلة الكتاب : أكتوبر سنة ١٩٤٧ ص ٣١ ، ١٤.

(2) مجلة الكتاب : أكتوبر سنة ١٩٤٧م ص ٣ ، ١٥.

لله موقفنا وقد ناجيتها ** بعظيم ما يخفى الفؤاد ويكتم

قالت من الشاكى؟ تسائل سربها ** عنى ومن هذا الذى يتظلم

فأجبتها وعجبن كيف تجاهلت ** هو ذلك المتوجع المتألم

أنا من عرفت ومن جهلت ومن له ** لولا عيونك حجة لا تفحم

أسلمت نفسى للهوى وأظنها ** مما يجشمها الهوى لا تسلم

وأتيت يحدو بى الرجاء ومن أتى ** متحرما بفنائكم لا يحرم

أشكو لذات الخال ما صنعت بنا ** تلك العيون وما جناه المعصم

لا السهم يرفق بالجريح ولا الهوى ** يبقى عليه ولا الصبابة ترحم

لو تنظرين إليه فى جوف الدجى ** متململا من هول ما يتشجم

يمشى إلى كنف الفراش محاذرا ** وجلا يؤخر رجله ويقدم[1]

فاننا نتفق معها فى أن الغزل عند حافظ قليل قليل ، وهو مع قلته مقلد فيه ، وهو فى هذا المطلع الذى سبقناه يقلد عمر بن أبى ربيعة كما يقول الرافعى "ومع ذلك فقد جاء فى ديوان حافظ غزل قليل كان كله متابعة وتقليدا فى من يحسن التقليد إلا فيه خاصة. عمل صدرا لقصيدة مدح بها الخديوى مطلعها :- .

---

(١) الديوان ص٢٨٩.

كم تحت أذيال الظلام متيم ** دامى الفؤاد وليله لا يعلم

وقلد ابن أبى ربيعة فى حكاية حب لفقها تلفيقاً ظاهراً"[1]

ومن هنا فحافظ يندر عنده شعر الغزل وإن كانت هذه الأبيات النادرة قد دفعت زكى مبارك إلى أن يستشهد بها فى كتابه "مدامع العشاق" ويعلق عليها قائلاً إن فى هذه القصيدة صورة شعرية بديعة تمثل العاشق وقد قال عليه الليل وهجر جفنية المنام ، وهى غاية فى حسن القصص وسحر البيان، وإن كان قد عاد فأعترف بعدم صدقة فى الغزل والتشبيب مرجعاً ذلك إلى ضجيج المجتمع الذى شغل حافظ عن سحر الجمال ، أو ربما مرجع ذلك إلى تفاوت الشعراء فى الإحساس بالجمال كما تتفاوت الحواس عند الشعراء وسحر البيان[2].

وكذلك الزبيرى يندر عنده شعر الغزل ، بل لا يوجد فى ديوان الزبيرى قصيدة واحدة تتحدث عن المرأة ، "لم يقترب الزبيرى من المرأة ، المرأة الحبيبة أو المرأة الأم ، أو المرأة الرمز ، حيث تتعانق المرأة والوطن. وحين اقترب الزبيرى من المرأة – وكانت المرة الوحيدة التى لم تتكرر – وفى أبيات محدودة العدد ، عادت إليه روح الصوفى الذى لا يرى فى المرأة جسداً لكنه يرى فيها عظمة الله ووحدة الوجود. إنه لم ينظر إليها نظرة سلفية فيهملها من حسابه ، ولم ينظر إليها نظرة جنسية شأن معظم الشعراء الكلاسيكيين والجدد منهم بصفة خاصة ، لكنه نظر إليها

---

[1] ذكرى الشاعرين. مقال للرافعى تحت عنوان : حافظ الشاعر الاجتماعى ص١١٥.

[2] مدامع العشاق. زكى مبارك ص٤٢.

من خلال تصوره الخاص للمرأة والشــعر. إن الشــاعر كــان يعــرف أن الطبيعة ، ومن ثمة المرأة تعطى للواقــع خصوصيتــه ، لكنــه مــع ذلــك كان يتصور أى شئ غير الوطن المباشـــر شــريكاً لــه ينبغــى تنحيتــه عن طريق شعره ، فالطبيعة شريك للوطـــن ينبغــى الإفــلات منــه ، مــا استطاع إلى ذلك سبيلاً ، والمرأة شريك ثــان ينبغــى أن يتجنبــها كذلــك. وقد استطاع إلا من هذه الأبيـــات :-

اغفرى لى إذا تطلعت مأخو	**	ذا إلى وجهك الطهور السنى
ما على الشمس لو غسلت بومض	**	من سناها ظلام قلب شفى
لمسة من هواك تشعل أعما	**	قى وتضفى على حس نبى
أنت لست المها يصول عليها	**	كل ذئب على المها وحشنى
لم يصغك الإله صيغتك المثلى	**	لنسل أو مأرب همجى
أنت من ناظريك روح إلاه	**	خالق كل خلق عبقرى[1]

فيما عـــدا هـــذه الأبيـــات فقـــد أدار ظـــهره للمـــرأة لا بوصفـــه شاعراً كلاسيكياً أو رومانســـياً ، بـــل باعتبـــاره شـــاعر الوطـــن[2]. وإذا اتفقنا مع الدكتور المقالح على قلة الغزل عنـــد الزبـــيرى ، فليســـمح لنـــا أن نخالفه فى أن هذه القصيـــدة الوحيـــدة فـــى ديوانـــه ، فـــهو نفســـه – أقصد الدكتور المقالح فى مقدمته الضافيـــة لديـــوان الزبـــيرى قـــد قـــال

(١) الديوان ص٣٥ ، والديوان ص ٦٢٨.
(٢) الديوان ص٣٦ ، وانظر الأبعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر فى اليمـن. د/عبد العزيز المقالح ص٩٣.

"وتبدو القصائد أو بالأصح المقاطع العاطفية في الديوان – باستثناء قصيدة الشاعر إلى زوجته تبدو في ندرتها كالأزهار الغربية الأريج في وسط الحقل الأخضر ، ذلك لأن الزبيرى شاعر وطني مسكون بهموم الملايين وآمالهم. فالوطن هو المحور الأساسي الذى تدور من حوله كل أشعاره. ولأنه في تقديرى – لم يمارس كتابة القصيدة الغزلية كبقية الشعراء المعاصرين ، فقد ظلت غزلياته أقرب شعره إلى التقليدية"[1] معنى هذا الكلام أن للزبيرى تلك القصيدة التي قال الدكتور عبد العزيز المقالح أنها فريدة في ديوانه ، وله قصيدة في زوجته ومحبوبته يتشوق إليها وهو في ديار الغربة ومطلعها.

يا حبيبى أين أنت اليوم من لوعة قلبى أين انت

وختامها :-

ليتنى أسلوك كى أحيا ، ويا ليتك عنى قد سلوت[2]

وله قصيدة تحت عنوان "الغازية" بتحريك الياء وهي التي تغزو القلوب والوجدان يقول فيها :-

أخذت تلاحظنى بطرف فاتك	**	ذرب على فرى الجوانح فاتك
يبدو بأن له نضالاً في الهوى	**	وبأنه ابن ملاحم ومعارك
يغزو الفؤاد بومضة أخاذة	**	عجلى ويدخله دخول المالك

(١) الديوان ص ٤٨٧.

(٢) الديوان ص٤٤٨.

نتخالس النظرات بين عواذل ** يقظى وبين مصارع ومهالك[1]

بل أن فى الديوان مقطوعات حملت عنوانا جامعا هو "غزليات" فيها هذه المقطوعة السابقة ، ومقطوعة "الطغيان الحلال"[2] ، ومقطوعة "طلب الغفران"[3] التى قال الدكتور المقالح أنها الوحيدة فى الديوان.

ويبقى بعد هذا أن الغزل فى ديوان الزبيرى نادر وهو عبارة عن عدة مقطوعات صغيرة لا تقارب أصبع اليد الواحدة.

– وكلاهما شاعر الشعب ، وكلاهما نحس بمراحل حياتهما فى شعرهما ، فحافظ له شعره وهو فى السودان ، وله شعره بعد أن أحيل إلى الاستيداع ، وله شعر وهو فى أسر دار الكتب ، وله شعره بعد ذلك ، والزبيرى له شعره فى مدح الأمير كمرحلة وله شعره فى "تعز" كمرحلة أخرى.

– وكلاهما لم يلتفت إلى الطبيعة :–

لقب حافظ إبراهيم بشاعر النيل ومع ذلك ، وكما يقول الدكتور عمر الدسوقى "ومن العجب أن حافظ إبراهيم الذى لقب بشاعر النيل ، لم يهتم بالطبيعة المصرية ، ويصفها وتقرأ ديوانه وتفتش فيه علك تعثر على أبيات ولوفى ثنايا قصيدة فلا تجد شيئا من هذا ، اللهم إلا أبياتا جاءت عرضا عند كلامه على نادى الألعاب

---

(١) الديوان ص ٦٢٥.

(٢) الديوان ص ٦٢٦.

(٣) الديوان ص ٦٢٧.

الرياضية بالجزيرة حين إقامة حفلة بـدار الأوبـرا سـنة ١٩١٦م والتـى يقول فى أولـها :-

بنادى الجزيرة قف ساعة ** وشاهد بربك ما قد حوى

ترى جنّة من جنان الربيع ** تبدّت مع الخلد فى مستوى

جمال الطبيعة فى أفقها ** تجلى على عرشها واستوى

وفيها يعتب على المصريين أنـهم زاهـدون فـى جمـال بلادهـم صـادفون عنـه ، ويؤثـرون الجلـوس فـى المقـاهى علـى التمتـع بالريـاض:

فما بال قومى لا يأخذون ** لتلك الجنان طريقاً سواً

وما بال قومى لا ينزلون ** بغير (جروبى) و (باراللوا)

نراهم على نردهم عكفا ** يبادر كل إلى ما غوى

وإلا ما جاء فى ثنايا قصيـدة بعـث بـها إلـى صديـق لـه فـى إنجلترا سنة ١٩٠٨ ، وفيها يقـول :

والنيل مرآة تتنفـّ ** س فى صحيفتها النسيم

سلب السماء نجومها ** فهوت بلجّتة تعوم

نشرت عليه غلالة ** بيضاء حاكتها الغيوم

شقت لأعيننا سوى ** ما شابه منها الأديم

وقد كان أجدى على حـــافظ ، وهـــو يملـــك بيانـــاً خلابـــاً متمكنـــاً من فصيح اللغة أن يعكـــف علـــى الطبيعـــة يخلـــد آثارهـــا ، ويســـتقرئ جمالها ، ولاسيما بعد أن كمم المنصب فـــاه ، فلـــم يعـــد يطـــرق أبـــواب الشعر السياسى منذ أن عين بـــدار الكتـــب"[١].

ولكن الإحساس بالطبيعة لا يتـــأتى لكـــل صـــاحب بيـــان خـــلاّب ، وفصاحة فى اللغة وإنما يحتاج إلى أمور أخرى كثـــيرة منـــها مـــا أشـــار إليه الدكتور طه حسين عندما قال "ولـــم يكـــن حـــافظ عظيـــم الثقافـــة ولا عميقها ، لم يكن من الممكن ولا من اليسير أن يتجـــه إلـــى تلـــك الفنـــون الشعرية الخالصة التى تصل بين الشاعر وبيـــن الطبيعـــة ، والتـــى ليـــس للسياسة ولا النظام عليها سلطان ، لـــم تكـــن النجـــوم فـــى الســـماء ولا الرياض فى الأرض ولا النيـــل ولا الصحـــراء تلـــهم حـــافظ شـــيئاً ، لأن حافظ لم يكن شاعر الطبيعة وإنما كان شـــاعر النـــاس"[٢].

وكما أن البيـــان الخـــلاب والفصاحـــة اللغويـــة لا يؤديـــان إلـــى الإحساس بالطبيعة ، فكذلـــك الثقافـــة التـــى أشـــار إليـــها الدكتـــور طـــه حسين ، ليست وحدها ، ولا مـــع البيـــان الخـــلاب والفصاحـــة اللغويـــة ، وإنما هى تأتى بعد إحســـاس الشـــاعر لتســـاعده وتعطيـــه القـــدرة علـــى التعبير عـــن هـــذا الإحســـاس ، والإحســـاس هبـــة مـــن الله ، يتفـــاوت الشعراء فـــى تملكـــهم لـــه ، فـــهذا شـــاعر فـــى المرتبـــة الأولـــى مـــن الإحساس وذاك فى الثانية وهكذا اتبعـــا لمـــا منحـــه الله لـــهذا الشـــاعر ، وقد كان نبوغ حافظ فى ثورته وكمـــا يقـــول أحمـــد أميـــن فـــى مقدمـــة الديوان مدافعاً عن غياب شعر الطبيعـــة فـــى ديـــوان حـــافظ "ولكـــن مـــا

---

(١)الأدب الحديث : عمر الدسوقى جـ٢ ص١٦٥.

(٢) حافظ و شوقى. طه حسين ص١٨٢.

ذنب حافظ ونبوغه إنما كان فى ثورته ، وإجادتــه فــى فورتــه وطبيعتــه وتعليمه ودربته تدعو إلى النبــوغ فــى سياســياته واجتماعياتــه لا فــى غزله وخمرياته ، وما يعيب الموسيقى أن يكــون ملــك العــود ، وليــس ملك القانون أو ملك الكمان وليس ملــك النــاى"[1].

وكذلك كان الزبيرى ، لم يتجه إلى الطبيعــة ولــم يلتفــت إليــها ، ويؤكد هذا الدكتور عبد العزيز المقالح فــى مقدمــة الديــوان وذلــك فــى قوله "لم يقترب الزبيرى من الطبيعة ، ولم يعــرف مــا عرفــه الشــعراء الكلاسيكيون من وصــف حســى للطبيعــة ، ولــم يعــرف كذلــك ســوى القليل جدا مما عرفــه الشــعراء الرومانســيون مــن مشــاركة وجدانيــة للطبيعة فى أحزانها وأفراحها ، وذلــك فــى حــال كونــها – أى الطبيعــة – عنده خلفية لوطنياته ، سواء كانت هــذه الوطنيــات صرخــات مدويــة أو حنينا خافتــا.

يتحدث الزبيرى عن ماضى اليمنييــن فيقــول :–

لهم الجبال الراسيات وأنفس ** مثل الجبال الراسيات العظام

أتراهم صنعوا الذرى أم أنها ** صنعتهم ، أم أنها أقوام

ولدوا عمالقة محنطة كما ** ولدت فراعنة لها الأهرام

أين (السعيدة) إن فيها جنة ** خضرا ، نماها الدهر وهو غلام

[1] مقدمة ديوان حافظ ص٨٦.

أين القصور الشم أين بناتها أل ** أقيال أين ملوكها الأعلام

أين البحار من السرود يرى لها ** بين الشواهق زخرة ورخام[1]

وله شعره وهو فى "عـــدن" ولـــه شـــعره وهـــو فـــى "باكســـتان" ومنها الإسلاميات ، واستقلال الهند وباكســـتان ومحمـــد ســـيد الأنبيـــاء ، وميلاد جناح والقضية الباكستانية ، والمؤتمـــر الإســـلامى فـــى باكســـتان وغيرها من القصائد فى تلـــك المرحلـــة.

وله قصائده فى مصـــر – يـــوم الجـــلاء ســـنة ١٩٥٦م ، وفيـــها يخاطب النيل بقولـــه :

أيها النيل كم رسفت على القيد وكابدت من غـــزاة بـــلاء

ورأيت العدا يعبون عبا ، منك والقوم من بنيـــك ظمـــاء

وحملت الطغاة نيرا على عنقك والشعب أو أدمعـــا ودمـــاء

نصبوا فوق صدرك البر أنياب الردى والمشـــانق النكـــراء

وأرادوا أن يجعلوا منك أفعى تنفث السم أو تبـــث الوبـــاء

وأرادوا أن تشرب الدم من قلب الضحايا وتـــأكل الأشـــلاء

وأذاقوك لحم أبنائك الغر الأولى قدموا الحيـــاة فـــــداء

حاولوا أن تكون قبرا ، فأصبحت عرينـــا تـــروع الدخــــلاء

كلما أطعموك جثة ليث ، صغت منـــه كتيبـــة خرســـــاء

حسبوك النهر الوديع ستجرى ، كيفما وجـــهوك رهـــو رخـــاء

(١) الديوان ص ٣٤.

فإذا أنت كل قطرة ماء فيك ، كانت جمرا ولم تـــك مـــــاء

وإذا أنت كنت أعمق غورا من مقاييسهم وأمضـــى دهــاء

زرعوا حولك السياط فما أنبت إلا حريـــة وإبـــــاء[1]

وصفقة الأسلحة ، "وعـــدوان وانســحاب" فـــى العــدوان الثلاثـــى علـــى بورســـعيد[2] و "ملحمـــة بورســـعيد". وشـــاهدى علـــى أن تلـــك المراحل موجودة عند الزبيرى هو قول الشاعر هـــلال نـــاجى فـــى كتابـــه "شعراء اليمن المعـــاصرون" عـــن إســـلاميات الزبـــيرى "ولابـــد هنـــا أن نشير إلى نمو الشعر الدينى عند الزبـــيرى بعـــد لجوئـــه إلـــى باكســـتان ، فهناك قصائد كثيرة أغلبـــها دينـــى كتبـــها شـــاعرنا فـــى تلـــك الفـــترة ، واعتقد أن الدافع الأساسى فى كتابتها هـــو وجـــوده ضيفـــا عنـــد قـــوم لا تربطه بهم سوى رابطة الديـــن الإســـلامى"[3].

وقد علق الدكتور المقـــالح علـــى الشـــاعر هـــلال نـــاجى بقولـــه "وهو تعليل صحيح ، فقـــد توقـــف الزبـــيرى نـــهائيا بعـــد خروجـــه مـــن الباكستان عن كتابة القصـــائد الإســـلامية"[4].

---

[1] الديوان ص ٤٢١.

[2] الديوان ص ٥٣٧. وقد فازت هذه القصيدة بالجائزة الثالثة فى المسابقة التـــى أقامتـــها جريدة المساء.

[3] شعراء اليمن المعاصرون. هلال ناجى ص٤١.

[4] الشعر المعاصر فى اليمن. الدكتور عبد العزيز المقالح ص ١٧٩.

- وأخيرا فقد قال حـــافظ :-

إن الملوك إذا استوت ألبستها ** بالمدح تيجانا على تيجان[1]

وقد قال الزبـــيرى :-

واجمع الشعب حول التاج متحدا ** يعوده لك إعظام وإكبار[2]

[1] ديوان حافظ ص ٥٠.

[2] الزبيرى أديب اليمن الثائر. عبد الرحمن العمرانى ص ٥٠.

الفصل الأول

المدح عند الشـــاعرين

المدح فى ديوان حافظ إبراهيـــم :-

لقد صور حـــافظ إحساســه بشـــعره ، بـــان الغـــالب عليـــه هـــو الرثاء. وذلك عندما قـــال :-

إذا تصفحت ديوانى لتقرأنى ** وجدت شعر المراثى نصف ديوانى[1]

وقد فهم بعض النقاد من قولـــــه "نصـــف ديوانـــى" أنـــها إشـــارة إلى الكم ، فراحوا يعدون أبيـــات الديـــوان ويوزعونـــها علـــى الأغـــراض الشعرية ليصلوا إلى صحة هذه المقولة أو عـــدم صحتـــها. وانـــا اعتقـــد أن فهم البيت الذى قاله حافظ بـــهذه الصـــورة المجـــردة ظلـــم للشـــاعر ، وظلم للشعر. الشاعر أحس انه يجيـــد فـــى شـــعر الرثـــاء[2] ، أو ينشـــط للرثاء أو أحس بوجوده فى قصائد الرثاء عنـــــها فـــى أى غـــرض آخـــر. ولعله لم يخطر ببال الشاعر أن يعد قصـــــائده أو أبياتـــه ويوزعـــها علـــى موضوعاتها ليتضح كم هذا وهـــــذاك.

---

(١) ديوان حافظ ص١٤٢ من قصيدة "تحية الشام" أنشدها فى الجامعة الأمريكية ببيروت.

(٢) وقد سجل زكى مبارك هذا الصدق فى الرثاء عندما قال : "ولقد يندر أن تجـــد نفســا تصدق صدق حافظ فى بكاء الذاهبين من الأصدقاء إلـــى عـــالم البقـــاء (البدائـــع جـــ٢ ص٢١٣).

وهو نفس ما قصده شوقى عندما رثاه بقوله :-

قد كنت أوثرا أن تقول رثائى ** يا منصف الموتى من الأحياء

ومع هذا فقد راح بعض الباحثين يحسب تركة حافظ من الشعر ويعدها بيتاً بيتاً ويصنفها ليصل إلى نتيجة تنقض ما قاله الشاعر عن نفسه ، وتأتى بمقولة أخرى وهى أن المدح أكثر كما من الرثاء فى ديوان حافظ ويرسم الباحث إحصائية تثبت ذلك وهى

الغرض الشعرى	عدد الأبيات	عدد القصائد والمقطوعات
المدائح والتهانى	١٥٤٦	٦٧
المراثى	١٣٧٨	٥٠
السياسيات	١١٤١	٣٨
الاجتماعيات	٨٠٢	٣٢
الإخوانيات	٣٨٥	٢٨
الوصف	٣٥٤	١٧
الشكوى	١٢٤	١٣
الخمريات	٠٥٩	٠٦
الغزل	٠٢٩	١٠
الأهاص	٠٢٤	١٠
المجموع	٥٨٤٢	٢٦١

ثم يعلق على هـذه الإحصائيـة قـائلا[1] "ربمـا كـان فـى هـذه الإحصائية رد علـى الفكـرة الشـائعة التـى كـان سـببها قـول حـافظ نفسـه:-

إذا تصفحت ديوانى لتقرأنى ** وجدت شعر المراثى نصف ديوانى

ومع رفضنا لفكرة قياس الشـعر بـالكم والعـدد[2] ، فإنـه يبقـى معضلة أخرى ، وهى بعض القصـائد التـى لا يمكـن أن تصنـف تحـت هذه العناوين التى أثبتـها البـاحث ، ومنـها القصيـدة "العمريـة" التـى قالها حافظ إبراهيم ، وشغلت سبعة وثمـانين ومائـة بيـت ، وقـد وردت فى الديوان فى غرض "المدح"[3] فـهل صحيـح أن العمريـة تدخـل فـى أغراض المدح. هذا من باب الكـم العـددى.

أما من الناحية الفنية ، فإن حافظ إبراهيم قـد جـود فـى مراثيـه ، ولم يحلق إلا نادرا فى قصائد المدح ، لـم يحلـق فـى مدحـه إلا فـى القصائد التـى مـدح فيـها مخلصـا ، كمدحـه للشـيخ محمـد عبـده ، ومدائح اخرى سنتحدث عنها فى حينها. ويبقى مـا أحـس بـه الشـاعر وهو أن المراثى فى ديـوان حـافظ إبراهيـم ، أو عنـد حـافظ إبراهيـم

---

[1] مجلة فصول: المجلد الثالث ، العدد الثانى مارس ١٩٨٣م ص٣٥ من مقـال "المعجـم الشعرى عند حافظ إبراهيم" لأحمد طاهر حسنين.

[2] وقد وجدت هذه الفكرة من يؤيدها ويوافقها ، فقد ساق الدكتور فـاروق الميـهى هـذا الكلام فى كتابه "حافظ إبراهيم فى مرائى الناقدين" دون أن يعلـق عليـها. ص٣٨ ، ٢٩. مطبعة السعادة الطبعة الأولى سنة ١٩٨٧م.

[3] شغلت القصيدة فى باب المدح عشرين صفحة من ص ٧٧ إلى ص ٩٧ من الديـوان. طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب.

تشغل حيزا من الديوان أكثر مما يشــغله غيرهــا ، ويــأتى المــدح بعــد ذلك.

مدح الساسة والحكام عند حافظ إبراهيم :-

تشــغل المدائــح والتــهانى فــى ديــوان حــافظ إبراهيــم ســتا وخمسين ومائة صفحة ، بما يقارب ربع صفحـــات الديــوان. وتقــع فــى قرابة ست وأربعين قصيدة ومقطوعة ، منـــها ســبع وعشــرون قصيــدة فى مدح الشعراء والأدباء والعلماء ، مثــل البــارودى ، وخليــل مطــران ، وأحمــد شــوقى ، وهيكــل ، وطــه حســين ، ومحمــد بــك هـــلال ، وشكسبير ، وفكتور هوغو ومنها ما جاء فــى صــورة تقريــظ لكتــاب أو مجلة. وبقى من قصائد المدح التـــى وردت فــى الديــوان تســع عشــرة قصيدة فى مدح الساسة والحكام ، منها ست قصـــائد فــى مــدح عبــاس الثانى ، وثنتان فى مــدح الســلطان عبــد الحميــد ، وثنتــان فــى مــدح السلطان حسين كامل ،وثنتان فى فؤاد الأول وثنتـــان فــى ســعد زغلــول ، وواحدة فى إدوارد السابع وغــير ذلــك.

- مدح حافظ للخديوى عباس الثانى :-

مدح حافظ إبراهيم الخديوى عباس الثـــانى بســت قصــائد ، لــم يحلق إلا فى قصيدة واحدة منـــها. القصيــدة الأولــى قــى تهنئتــه بعيــد الفطر سنة ١٩٠١. ويبدأ القصيدة بالغزل فـــى قصــائده وشــعره ، تــرى هل هى مطالع السعد ، أم مطالع الأقمار ، أم هـــى أشــعاره التــى تجلـت بهذا العيد ، تلك المدحة التى وجهـــها إلــى بــاب الخديــوى ، ونســجها على غرار قصائد شوقى ، وأرســـلها طيبــة الرائحــة ، وهــو يــأمل أن يذكره عزيز مصر ، ويذكر شيئا مـــن أحاديثــه وأخبــاره ، فــهو محــب

للعائلة المالكة ، يحن لذكراهـم ويشـدو بمدحـهم كالطـائر المغـردّ فـى السحر. ويكفيه القليل مـن شـعره عـن الكثـير ، فحسـبه بيـت واحـد يزينه بذكر عباس لـيرفع قـدره ويعلـى شـأنه ، ومـا هـو بالشـاعر المكثار ، فمدح الملوك ينبغى أن يكون فـى أبيـات قليلـة فـى معناهـا ، ولكنها اللآلئ التى ينفـث فيـها سـحره ، فـإذا المعـانى والألفـاظ قـد جمعت بين المتنبـى وبشـار ومـهيار ، فـهى كـالجدول الجـارى فـى الحسن والبـهأر.

إلى هنا ومـا زال حـافظ يتحـدث عـن نفسـه وعـن شـعره ، ويلمح إلى قصائده ، وما ينبغى أن يكون عليـه مـدح الملـوك ، ودعـك من المكثار والثرثار. ولم يمدح الخديوى إلا فـى إشـارات خاطفـة :-

مطالع سعد أم مطالع أقمار ** تجلت بهذا العيد أم تلك أشعارى

إلى سُدّة العباس وجهت مدحتى ** بتهنئة شوقية النسج معطار

مليك أباح العيد لثم يمينه ** ويا ليت ذاك العيد يبسط أعذارى

ويحمل عنى للعزيز تحية ** ويذكر شيئاً من حديثى وأخبارى

لآل على زينة الملك وجهتى ** وإن قيل شيعيى فقد نلت أو طارى

أحن لذكراهم وأشدو بمدحهم ** كأنى بجوف الليل هاتف أسحار

وأنشد أشعارى وإن قال حاسدى ** نعم شاعر لكنه غير مكثار

فحسبى من الأشعار بيت أزينه ** بذكرك يا عباس فى رفع مقدارى

كذا فليكن مدح الملوك وهكذا ** يسوس القوافى شاعر غير ثرثار

ويسلب أصداف البحار بناتها ** بنفثة سحر أو بخطرة أفكار

معان وألفاظ كما شاء أحمد ** طوت جزل بشار ورقة مهيار

إذا نظرت فيها العيون حسبتها ** لحسن انسجام القول كالجدول الجارى

أين مدح الخديوى فى هذه الأبيـــات؟ وهـــى حديـــث حـــول شـــعر حافظ ، وما ينبغى أن يكون عليه شاعر الملك. بقـــى فـــى هـــذه المدحـــة أربعة أبيات ، دعـــا فيـــها المليـــك أن يحبـــو العيـــد بالإيثـــار ، واليمـــن والإقبال ، ثم ختم القصيدة بالدعـــاء لـــه :-

ولازلت فى دست الجلال مؤيدا ** ولا زال هذا الملك فى هذه الدار[1]

هل نستطيع أن نقول عن هـــذه القصيـــدة إنـــها مدحـــة للخديـــوى ، وأنه حلق فى هذا المـــدح وأتـــى فيـــه بجديـــد ، لا يســـتطيع أن يقـــول ذلك منصـــف.

- القصيدة الثانية فى مدح الخديوى عبـــاس الثـــانى :-

قالها حافظ سنة ١٩٠١ يمدحه ويهنئـــه يعمـــد جلوســـه ، وهـــى نسخة مطابقة للقصيدة السابقة ، فقد بدأها بـــالحديث عـــن نفســـه وعـــن شـــعره :-

ماذا ادخرت لهذا العيد من أدب ** فقد عهدتك رب السبق والغلب

---

(١) ديوان حافظ إبراهيم ص١٢.

هكذا من بداية القصيـــدة ، فـــهو رب الســبق والغلـــب ، كمـــا أن غـــيره رب الســـيف والقلـــم. وليـــس هـــذا وفقـــط ، ولا يكتفـــى بمطلـــع القصيدة ، وإنما ليبسط القول ما شاء له القول فـــى شـــعره ونفســـه :-

تشدو وترهف بالأشعار مرتجلا ** وتبرز القول بين السحر والعجب

وتصقل اللفظ فى عينى فاحسبنى ** أرى فرند سيوف الهند فى الكتب

هذا هو العيد قد لاحت مطالعه ** وكلنا بين مشتاق ومرتقب

فادع البيان ليوم لا تطاوله ** يد البلاغة فى الأشعار والخطب

إنى دعوت القوافى حين أشرق لى ** عيد الأمير فلبت غرة الطلب

وأقبلت كأياديه إذا نسجت ** على الورى وغدت منى على كثب

فقمت اختار منها كل كاسية ** تاهت بنضرتها فى ثوبها القشب

أرأيت إلى هذه الأبيات التـــى تتحـــدث عـــن شـــعر حـــافظ ، ولـــم تمس المليك إلا مسا خفيفا عندمـــا أقبلـــت القوافـــى كأيـــادى الأمـــير إذا انسجمت على الورى وأصبحت عطاياه قريبة مـــن حـــافظ!

ثم بعد ذلك وعندما صار يصبـــح هـــذا البيـــان الـــذى لا يطاولـــه بيان ، وجها لوجه فى مقابلة مدح المليـــك ، يحـــاد ، ويتحـــير :-

وحار فيه بيانى حين صحت به ** بالغر يبدأ أم بالمجد والحسب؟

يا من تنافس فى أوصافه كلمى ** تنافس العرب الأمجاد فى النسب

ومن ثم ينقطع نفس الشاعر ، ولا يجد مـــا يقولـــه أو يمـــدح بـــه المليك ، فيرجع مرة أخرى إلى شعره ، وإلى شـــعر منافســـه شـــوقى:-

لم يبق أحمد من قول أحاوله ** فى مدح ذاتك فاعذرنى ولا تعب

فلست ممن سمت بالشعر همتهم ** إلى الملوك ولا ذاك الفتى العربى

وبعد هذا الإحجام والتهيب ينطلق مرة أخـــرى إلـــى المـــدح :-

لكن عيدك يا عباس انطقنى ** كالبدر أطلق صوت البلبل الطرب

عيد الجلوس لقد ذكرت أمته ** يوما تأبه فى الأيام والحقب

اليمن أوله والسعد آخره ** وبين ذلك صفو العيش لم يشب

فالعرش فى فرح والملك فى مرح ** والخلق فى منح والدهر فى رهب

والملك فوق سرير الملك تحرسه ** عين الإله وترعى أعين الشهب

أين مدح المليك فى هذه الأبيـــات؟ ، وكلـــها دعـــوات لـــه ، أيـــن شخص المليك؟ أين صفاته؟ ولا يجد ما يختم بـــه قصيدتـــه بعـــد هـــذا إلا التأكيد على أن الله تولى أسرة العبـــاس بالرعايـــة فـــى الآبـــاء والأبنـــاء وذلك فى بيتـــن اثنيـــن ، ثـــم لا ينســـى أن يختـــم قصيدتـــه كمـــا بدأهـــا بالحديث عن الشعر ، فالذى قـــال إن أعـــزب الشـــعر أكذبـــه ، قـــد أزرى بالأدب ، ولم يوفـــق فـــى هـــذه المقولـــة ، وإنمـــا القـــول الموفـــق ، أن أعذب الشعر ما ذكر فيه المليك ، وتأبى علـــى اللغـــو والكـــذب :-

يا من توهم أن الشعر أعذبه ** فى الذوق أكذبه ، أزريت بالأدب

عذب القريض قريض بات يعصمه ** ذكر ابن توفيق عن لغو وعن كذب[1]

هل نرى تجديدا فـــى معـــانى المـــدح؟ وأكـــاد أقـــول هـــل نـــرى مساحة للمدح فى القصيدة وهو كلما اقبـــل علـــى المـــدح ، كلمـــا أحجـــم وتوارى وراء وصف شعره ، أو الدعـــاء للممـــدوح؟.

* القصيدة الثالثة فى مدح عبـــاس الثـــانى :-

قالها حافظ فى تهنئة الخديـــوى عبـــاس الثـــانى بعيـــد الأضحـــى سنة ١٣٢١هـــ. وهى ليست بدعا فى القصائد التـــى مدحـــه بـــها ، فـــهو يبدأها أيضا بالحديث عن نفسه ، وهو يقول مخاطبـــا العيـــد ليتنـــى أفـــوز بالقرب من صاحب مصر كما فـــزت أنـــت ، لقـــد صغـــت القريـــض فمـــا تركت لؤلؤة فى تاج كسرى "ولا فى عقـــد بـــوران" إلا وأتـــى بـــها ، لقـــد أغرى بالغوص قلمه فأتى بـــالدر والمرجـــان ، بكـــل الـــدر والمرجـــان ، حتى ضج أهل عمان وقد نضب موردهـــم وضـــج الحاســـد الشـــانئ مـــن هذا الأمـــر.

لقد حاول الحســـاد أن يقلـــدوه فـــى غوصـــه علـــى الـــدر فمـــا أدركوا سوى صدف ، ولقد عـــابوا ســـكوته ، ومـــا أغراهـــم بـــالكلام إلا هذا السكوت ، وقد آن الأوان ليتحدث فيعيـــد عـــهد أبـــى نـــواس وأيـــام حسان بن ثـــابت.

يزف إلى العباس غانية عفيفة الخـــدر مـــن آيـــات عدنـــان ، هـــا هو يشبه قصيدته بالغانية فى خدرها مـــن أصـــل عربـــى صميـــم. وهـــى

من الأوانس ، وقد حلاهـــا يـــراع فتـــى صـــافى القريحـــة صـــاح غـــير نشوان ، لم يستعن بالراح والبان ، ولـــم يســـتهل القصيـــدة بذكـــر الغيـــد والحســان.

أرأيت فى هذه الأبيات مدحـــا للمليـــك؟ أغـــر هـــؤلاء الذيـــن رأوا عنوان القصيدة "فى تهنئـــة عبـــاس" فقـــالوا أنـــها فـــى المـــدح؟ يقـــول حـــافظ:-

طف بالأريكة ذات العز والشان	**	واقض المناسك عن قاص وعن دانى
يا عيد ليت الذى أولاك نعمته	**	بقرب صاحب مصر كان أولانى
صغت القريض فما غادرت لؤلؤة	**	فى تاج (كسرى) ولا فى عقد (بوران)
أغريت بالغوص أقلامى فما تركت	**	فى لجة البحر من در ومرجان
شكا (عمان) وضج الغائصون به	**	على اللآلى وضج الحاسد الشانى
كم رام شأوى فلم يرد سوى صدف	**	سامحت فيه لنظام ووزان
عابوا سكوتى ولولاه لما نطقوا	**	ولا جرت خيلهم شوطا بميدان
واليوم أنشدهم شعرا يعيد لهم	**	عهد (النواسى) أو أيام (حسان)
أزف فيه إلى (العباس) غانية	**	عفيفة الخدر من آيات عدنان

---

[1] الديوان ص ١٥.

من الأوانس حلاها يراع فتى ** صافى القريحة صاح غير نشوان

ما ضاق أصغره عن مدح سيده ** ولا استعان بمدح الراح والبان

ولا استهل بذكر الغيد مدحته ** فى موطن بجلال الملك ريان[1]

أعتقد أن الشاعر قد فـــرغ مـــن مـــدح نفســـه ، والحديـــث عـــن شعره ، والنيل من حساده ، وزعزعة مكانتـــهم فـــى هـــذه الأبيـــات التـــى طالت حتى قاربت نصف قصيدة نظمـــها لمـــدح المليـــك ، ثـــم مـــاذا؟ لـــم يبق أمامه إلا أن يخلص للمدح. وإذن فهى المواجهـــة. مـــاذا يقـــول :-

أغليت بالعدل ملكا أنت حارسه ** فأصبحت أرضه تشرى بميزان

ما معنـــى هـــذا؟ معنـــاه أن العـــدل قـــد عـــم أرجـــاء المملكـــة ، فأصبحت أرضا غالية ، لكنى لا أفـــهم كيـــف تبـــاع الأرض بمـــيزان مـــن شدة الغلاء؟ وما هـــذا التشـــبيه الســـقيم للوطـــن بمـــا يبـــاع ويشـــترى بمـــيزان؟.

جرى بها الخصب حتى أنبتت ذهبا ** فليت لى فى ثراها نصف فدان

ميت واحد وصف فيه المليـــك بـــالعدل ، ثـــم عقـــب فـــى البيـــت الثانى بطلب منحـــة ، ونســـى أنـــه وصـــف الأرض مـــن غلوهـــا بأنـــها أصبحت تباع بالميزان ، فراح يطلب فـــى ثراهـــا نصـــف فـــدان ، ولمـــاذا إذن لم يطلب بالجرام؟ مبالغات سقيمة ، وهـــــروب مـــن مواجهـــة مديـــح المليك وقد هرب من مدح المليك إلى وصـــــف النيـــل :-

---

[1] الديوان ص ٢٩.

نظرت للنيل فاهتزت جوانبه ** وفاضى بالخير فى سهل ووديان

يجرى على قدر فى كل منحدر ** لم يجف أرضا ولم يعمد لطغيان

كأنه ورجال الرى تحرسه ** مملك سار فى جند وأعوان

قد كان يشكو ضياعا مذ جرى طلقا ** حتى أقمت له خزان أسوان

هو إذن يعدد أيادى المليك فهو قد اشـــتهر بـــالعدل وبنـــى خـــزان أسوان ، وأخصب الأرض ، وجيـــش الجيـــوش للدفـــاع عـــن الســـودان. ثم يدعوه إلى رعاية أمتة فيقـــول :-

فكن بملكك بناء الرجال ولا ** تجعل بناءك إلا كل معوان

وانظر إلى أمة لولاك ما طلبت ** حقا ولا شعرت حبا لأوطان

لاذت بسرتك العلياء واعتصمت ** واخلصت لك فى سر وغعلان

حسب الأريكة أن الله شرفها ** فأصبحت بك تسمو فوق كيوان[1]

تاهت بعهد مليك فوق مفرقه ** لملك مصر وللسودان تاجان

ويختم القصيدة ببيـــت يعـــز عليـــه أن يجعلـــه خالصـــا لمليكـــه ، وألا فيقتسمه معه ، وينهى القصيدة بـــــالحديث عـــن شـــعره كمـــا بدأهـــا بـــه.

---

[1] فسر فى الديوان بأنه اسم زحل بالفارسية ، وينظر لسان العرب مادة كون.

هذا هو الملك فليهنئ مملكه ** وذا هو الشعر فلتنشده أزمانى[1]

- القصيدة الرابعة فى مدح عباس الثانى :-

قال حافظ يهنئ سموه بالعام الهجرى :-

وفى هذه المرة يبدأ قصيدته بإظهار حبه للأمير ، وإخلاصه له وقصر وده عليه ، ولا ننسى انه يعارض بتلك القصيدة أبا نواس فى رائيته المشهورة فى مدح الخصيب بن عبد الحميد العجمى أمير مصر فى عهد الرشيد ، والمعارض دائما يتكأ على المعارض فى الوزن والقافية ، ويستمد منه بعض معانيه ، لذا رأينا حافظ يبدأ قصيدته بالمواجهة مع المدح مباشرة :-

قصرت عليك العمر وهو قصير ** وغالبت فيك الشوق وهو قدير

وأنشأت فى صدرى لحسنك دولة ** لها الحب جند والولاء سفير

فؤادى لها عرش وأنت مليكه ** ودونك من تلك الضلوع ستور

وما انتفضت يوما عليك جوانحى ** ولا حل فى قلبى سواك أمير

كتمت فقالوا : شاعر ينكر الهوى ** وهل غير صدرى بالغرام خبير

هل هذا مدح للأمير؟ ، هل هو غزل وهيام؟ هو أقرب إلى الغزل منه إلى المدح. ، بل هو غزل ليس فيه من المدح من شئ ، ولم لا وهو يعارض أبا نواس وقد بدأ قصيدته بالغزل. ويستمر فى هذا المدح ، أقصد هذا الغزل

[1] الديوان ص ٣٠.

ولو شئت أذهلت النجوم عن السرى ** وعطلت أفلاكا بهن تدور

وأشعلت جلد الليل منى بزفرة ** غرامية منها الشباب يطير

ولكننى أخفيت ما بى وإنما ** لكل غرام عاذل وعذير

أرى الحب ذلا والشكاية ذلة ** وأنى بسترالذ لتين جدير

ولى فى الهوى شعران : شعر أذيعه ** وآخر فى طى الفؤاد ستير

ولولا لجاج الحاسدين لما بدا ** لمكنون سرى فى الغرام ضمير

ولا شرعت هذا اليراع أناملى ** لشكوى ولكن اللجاج يثير

على أننى لا أركب اليأس مركبا ** ولا أكبر البأساء حين تغير

فكم حاد عنى الحين والسيف مصلت ** وهان على الأمر وهو عسير

وكم لمحة فى غفلة الدهر نفست ** هموما لها بين الضلوع سمير

فقد يشتفى الصب السقيم بزورة ** وينجو بلفظ عاثر وأسير

ستة عشر بيتا من بداية قصيدة المدح للأمير ، يشغلها حافظ فى الغزل والهيام ، أى ما يزيد على نصف القصيدة ، فماذا هو فاعل ، ولم يبق أمامه سوى المدح. فماذا قال :-

مليك إذا غنى اليراع بمدحه ** سرت بالمعالى هزة وسرور

ثم يلجأ إلى الحديث عــــن الشــرق الــذى ســعد وتفــاعل خــيرا عندما اعتلى الملك أريكـــة الملــك. فقــد مضـــى زمـــن والغـــرب يســطو بقوته على الشـــرق. إلـــى أن أتـــاح الله للشـــرق نهضـــة. لقــد تقدمـــت اليابان ، ومصر ستسير علـــى آثارهـــا ولـــم لا؟ وهـــل يمنــع المصـــرى إدراك شأوها من مـــانع ، وأنـــت نصــير ومســاعد لمـــن طلـــب العـــلاء والرفعة. ويدعوه إلى أن يقف موقـــف الفـــاروق عمـــر ، ويســـير ســـيرة العدل والشورى ، فينظر لهذه الأمة ، ولا يستشـــر غـــير العزيمـــة.

ثم، وبعد أن يسير ســـيرة عمـــر فـــإن عرشـــه محـــروس وربـــه حارس وأنت على ملك القلوب أمـــــير.

أمولاى إن الشرق قد لاح نجمه ** وآن له بعد الممات نشور

تفاعل خيرا إذ رآك مملكا ** وفوقك من نور المهيمن نور

مضى زمن والغرب يسطو بحوله ** على ومالى فى الأنام ظهير

إلى أن أتاح الله للصقر نهضة ** فقلت غرار الخطب وهو طرير

جرت أمة اليابان شوطا إلى العلا ** ومصر على آثارها ستسير

ولا يمنع المصرى إدراك شأوها ** وأنت لطلاب العلاء نصير

فقف موقف الفاروق وانظر لأمة ** إليك بحبات القلوب تشير

ولا تستشر غير العزيمة فى العلا ** فليس سواها ناصح ومشير

فعرشك محروس وربك حارس ** وأنت على ملك القلوب أمير[١]

هـــل نســـتطيع أن نقـــول إن هـــذه الأبيـــات مـــدح للأمـــــير ، أم مطالب أمة تجاه مليكها؟ هـــــل هـــو مـــدح للأمـــير أم مشـــروع إصـــلاح لحال هذه الأمة يطالب به الشـــاعر الأمـــير.

- القصيدة الخامســـــة :-

وهى فى تهنئة ســـــمو الخديـــو عبـــاس الثـــانى بعيـــد الأضحـــى وتقع فى خمسة وثلاثين بيتـــاً. وقـــد بدأهـــا بـــالغزل ، وهـــو فـــى هـــذه القصيدة يجارى إسماعيل صبرى فى قصيدتـــــه التـــى مطلعـــها :-

لو أن أطلال المنازل تنطق ** ما ارتد حرّان الجوانح شيق

وجاءت أبيات الغزل فى عشرين بيتاً بدأهـــا بقولـــه :

سكن الظلام وبات قلبك يخفق ** وسطا على جنبيك هم مقلق

صار الفراش وصرت فيه فأنتما ** تحت الظلام معذب ومؤرق

حتى خلص من هذا الغزل إلى مـــدح الشـــاعر إســـماعيل صـــبرى ، فهو قد استثار دفائنه وهـــزّه ، وأراه الإبـــداع كيـــف يكـــون ، وســـبقه فى مدح عباس ومثله يسبق ويتفوق ، ثـــم يفـــرغ للحديـــث عـــن شـــوقى وبراعته فى النسيب ، مشيراً إلى قصيدتـــــه التـــى جـــارى فيـــها صـــبرى

---

[١] الديوان ص ٣٣.

أيضا فى هذا العيد[1] وقد استغرق الحديـــث عـــن صــبرى وشـــوقى مـــن القصيدة تسعة أبيات يقول فيـــــها :-

صبرى استثرت دفائنى وهززتنى ** وأريتنى الإبداع كيف ينسق

فــأبحت لـــى شــكوى الـــهوى ** فى مدح "عباس" ومثلك يسبق وسبقتنى

قال الرئيس فما لقول بعده ** باع تطول ولا لمدح رونق

شوقى نسبت فما ملكت مدامعى ** من أن يسيل بها النسيب الشيق

أعجزت أطواق الأنام بمدحة ** سجد البيان لربها والمنطق

لم تتركا لى فى المدائح فضلة ** يجرى بها قلمى الضعيف ويلحق

نفسى على شوق لمدح أميرها ** ويراعتى بين الأنامل أشوق

ماذا أقول وأنتما فى مدحه ** بحران بات كلاهما يتدفق

العجز أقعدنى وإن عزائمى ** لولاكما فوق السماك تحلق[2]

---

[1] مطلع القصيدة :-

أما العتاب فبالأحبة اخلق ** والحب يصلح بالعتاب ويصدق

ينظر ديوان أحمد شوقى جـــ١ ص٤٨٤.

[2] الديوان ص ٤٣.

تسعة وعشرون بيتا من بداية القصيدة ولـــم يلتفــت حــافظ إلـــى الأمير إلا فـــى البيــت الثلاثيـــن مـــهنئا لـــه بوجـــود هذيـــن الشـــاعرين الكبيرين إلى جواره ، وهو مدح للشـــــاعرين لا للأمـــير :

فليهنأ العباس أن بكفه ** علمين هزهما الولاء المطلق

وإلى هنا بدأ فى موضوع القصيدة وهو مدح الأمير وشكر سموه على عفوه عن مسجونى دنشواى. وقد تبقى فى القصيدة خمسة أبيات ، فهل يشـــغلها يمدح الأمير ؟ ، وهل هو بمستطيع ؟ لقد مدحه فى ثلاثة منها فقال :

وليبق ذخرا للبلاد وأهلها ** يعفو ويرحم من يشاء ويعتق

عباس والعيد الكبير كلاهما ** متألق بإزائه متألـــــــــــق

هذا له تجرى الدماء وذا له ** تجرى القرائح بالمديح وتعنق

لقد فرغ من مدح الأمير ومن شكره على عفوه من مسجونى دنشواى ، ولم لا وقد قال فى نصف بيت " ليبق ذخرا للبلاد وأهلها " وقـــال مشـــيرا إلى عفوه " يعفو ويرحم من يشاء ويعتق " وشبهه بالعيد فى تشبيه عقيـــم " كلاهما متألق بإزائه متألق " فالعيد مرتبط بالأضحيـــــة ، وعبـــاس مرتبـــط بالمدائح ولا أدرى وجه الشبه ووجه الارتباط . ثم ماذا ؟ ثم لا يجـــد عنـــده مدحا للأمير فليستعن ببيت لصبرى يمدح فيه الأمير ليختم به مدحته فيقول:

صدق الذى قد قال فيه وحسبه ** أن الزمان لما يقول مصدق

(لك مصر ماضيها وحاضرها معا ** ولك الغد المتحتم المتحقق)

أين مدح عباس الثانى فى هذه القصيدة ؟ لن نجد مدحا إلا فى البيـــت

الأخير وقد استعاره حافظ من صبرى ليختم به قصيدته.

القصيدة السادسة:-

ـ تهنئة الخديوى عباس الثانى يقدومه من الحج :ـ

يسجل إبراهيم عبد القادر المازنى فى مقال له عن حافظ [1] ملاحظة مهمة فيقول:-

(... وأذكر أنى زرته مرة فى دار الكتب ، وكنت مشغولا بابن الرومى ، فجرى ذكر قصيدة طويلة له فى وليد ، فعجب حافظ رحمة الله لقدرة ابن الرومى على نظم ثلاثمائة بيت فى وليد ليس فى حياته شىء لأنها لم تبدأ إلا منذ أيام ، وقال : إنه هو لا يستطيع أن يقول أكثر من ثلاثين أو أربعين بيتا فى رجل تام الحياة مكتمل الرجولة ، فقلت له إن هذا هو الواجب أن يكون ، لأن الرجل الكبير الذى تمت حياته ، واكتملت رجولته ، يكون قد أصبح محدودا بحدود هذه الحياة وبسيرته فيها ، فليس يسع الشاعر أن يخرج من هذه الحدود التى رسمتها سيرة الرجل وحوادث حياته ، وإذا تجاوزها بجهد فلن يكون ذلك إلى مدى بعيد. ولكن الطفل الوليد كله أمل منبسط الرقعة مترامى الآفاق لا يحد الكلام فيه شىء ، فمجال الخيال رحيب لا يعترضه ولا يأخذ عليه متوجهه شىء ، وفى وسع أن الشاعر يركض فى كل ناحية بلا عناء .

أسوق هذه الواقعة ، لأؤكد على أن حافظ لم يكن يمدح أحدا إلا بما يراه أمامه ما ماثلا للعيان ، وفى مدحه لعباس الثانى فى القصائد السابقة ،

---

[1] ذكرى الشاعرين ص ٦٣.

لم يجد شيئا يمدحه به ، فكان يهرب من المدح إلى أشياء أخرى ، وخلت القصيدة من المدح سوى بعض الأبيات القليلة.

أما القصيدة التى معنا فقد مدح فيها حافظ ، عباس الثانى ووجد فى مناسبة الحج ومشاعره ومناسكه فرصة سانحة للقول . ولذلك يبدأ القصيدة مباشرة بمخاطبة الأمير ، والحديث عن نعمة الحج والبيت الحرام ، والركب وقد يمم البيت العتيق : -

منى نلتها يا لا بس المجد معلما	أدينا ودنيا ؟ زادك الله أنعما
فلله ما أبهاك فى مصر حاليا	ولله ما أتقاك فى البيت محرما
أقول وقد شاهدت ركبك مشرقا	وقد يمم البيت العتيق المحرما
مشت كعبة الدنيا إلى كعبة الهدى	يفيض جلال الملك والدين منهما
فيا ليتنى اسطعت السبيل وليتنى	بلغت من الدارين رحبا ومغنما
وفى الركب شمس أنجبت أنجب الورى	فتى الشرق مولانا الأمير المعظما[1]
يسير إلى شمس الهدى فى حفاوة	من العز تحدوها الزواهر أينما [2]
فلم أر أفقا قبل ركبك أطلعت	جوانبه بدرا وشمسا وأنجما
ولو أننى خيرت لاخترت أن أرى	لعيسك وحدى حاديا مترنما

---

[1] يقصد بالشمس أم الخديوى ، وكانت قد حجت معه :

[2] شمس الهدى : رسول الله صلى الله علية وسلم.

أسير خلال الركب نحو حظيرة	على ربها صلى الإله وسلما

إلى خير خلق الله من جاء ناطقا	بآياتها إنجيل عيسى بن مريما[1]

أرأيت هذه العاطفة المتدفقة تجاه تلك البقاع المقدسة والشوق إليها ، أرأيت هذه الألفاظ منى ، لا بس المجد ، البيت محرما ، البيت العتيق المحرما ، كعبة الهدى ، شمس الهدى ، العيس ، حاديا بأياتها عيسى بن مريما . بطحاء مكة ، زمزم ، فالقصيدة شوق وهيام إلى تلك البقاع المقدسة ، ولا مانع من اعتراض بيت أو بيتين فى مدح عباس الثانى :

حللت بأكناف الجزيرة عابرا	فأنضرت واديها وكنت لها سما

وأشرقت فى بطحاء مكة زائرا	فبات عليك السيل يحسد زمزما

وما ظفرت من بعد(هارون) أرضها	بمثلك ميمون النقيبة منعما

ولا أبصر الحجاج من بعد شخصه	على عرفات مثل شخصك محرما

إلى هنا وقد استنفذ حافظ إبراهيم تلك الشحنة العاطفية تجاه الأراضى المقدسة ، وأمله فى الحج ، وأن الأراضى المقدسة لم تظفر بمثل هذا الحاج فى تقاه وورعه . ثم ماذا بعد ؟ بماذا هو مادح عباس حلمى الثانى ؟ يقول له :-

---

[1] ديوان حافظ ص ٥١.

رميت فسددت الجمار فلم تكن ... ِجماراً على إبليس بل كنّ أسهما

وإن الذى ترميه وقف على الردى ... وإن لاذ بالأفلاك يا خير من رمى

رمى الجمرات معروف ، ليس فيه براعة فى التســــديد ، ولا إصـــابـــة وإهـــلاك ولا معنى لقوله فسدّد الجمار ، وكنّ أسمها ، والذى يهلك ولـــولاذ بالأفلاك ، لا معنى لهف الصورة بالمرّة ، وإذن ليفرّ من المدح ، وليلجأ إلى وصف المناسك ، الصفا والمروة ، والسعى بينهما ، الهرولة ، الطـــواف ، استلام الركن

وبين الصفا والمروه أزددت عزة * بسعيك يا (عباس) لله مسلما

تهرول للمولى الكريم معظماً * وكم هرول الساعى إليك وعظما

وطفت وكم طافت بسدتك المنى * وكم أمسك الراجى بها وتحرما

ولما أستلمت الركن هاجت شجونه * فلو انه أسطاع الكلام تكلما

تذكر (زين العابدين) وجدّه * وما كان فى قول الفرزدق فيهما [1]

فلو يستطيع الركن أمسك راحة * مسحت بها يا أكرم الناس منتمى [2]

---

[1] قوله " وما كان من قول الفرزدق فيهما " استفادة لمدح الفرزدق لزين العابدين :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته * والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم * هذا التقى النقى الطاهر العلم

وقد أخذ هذا البيت من الفرزدق

يكاد يمسكه عرفان راحته * ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم

[2] الديوان ص٥٥.

ثم بدأ يعرض حافظ مطالبة ، ورؤياه الإصلاحية ، والتى هى مغلفة بالمدح

لقد دعا عباس الثانى لهذه الأمة ، وأقصى أمانيه أن يرى شعب النيل منعمـا وأن يبنى المجد ، ويرهف السيف ، وهو سليل ملوك أقاموا عمود الدين لما تهدما ، فهو ليس سليل ملوك وفقط ، ولكنهم أقاموا عمـــود الديـــن وهـــو متشبه بهم ، لئن أغرم عباس بالمجد فهو متشبه بإبراهيم باشا ابن محمـــد على ، وإن كان يحب المكرمات فكذلك كان إسماعيل ، وإن سكنت التقـــوى قلبه فقد كان قلب توفيق مفحما بالتقوى ، وهو إن نـــهض بمصـــر ، فقـــد تأسى بجدة محمد على . هذه هى قائمة للإصلاحات وقد غلفت بالمدح حثـــا لة على الفعل . ويختم مدحه بتزكية فعاله الطيبة التى فعلها للدين :

رجعت وقد داويت بالجود فقرهم * وكنت لهم فى موسم الحج موسما

وأمنت للبيت الحرام طريقه * وكان طريق البيت من قبلها دما

ويسرته حتى أستطاع ركوبه * أخو الفقر لا يطويه جوع ولا ظما

وجدت وجادت ربه الظهر و التقى * على العام حتى أخصب العام منكما

فلم تبقيا فوق الجزيرة بائسا * ولم تتركا فى ساحة البيت معدما

فأرضيتما الديان والدين كله * لقد رضى الديان والدين عنكما(١)

ومن هنا وطوال تلك القصائد ، لم نجد عنـــد حـــافظ نشـــاطا للمـــدح ، ولا استغراق فيه ، وإنما هروب إلى وصف قصائده ، أو الحديث عـــن نفســـه وتزكية شعره ، أو مطالب الأمة ، أو الحديث عن خصومـــة ، ولـــم ينشـــط للمدح إلا فى هذه القصيدة ، لما فى مناسبتها مـــن أحـــداث ، وارتباطـــها بمشاعر دينية.

---

[١] الديوان ص ٥٥.

على هامش قصائده فى مدح عباس:

لاحظنا إلحاح حافظ على تزكية قصائده ، والحديث عن نفسه حتى قال " كـذا فليلن مدح الملوك" وهو الذى قال

يا عيد ليت الذى أولاك نعمته * بقرب صاحب مصر كان أولانى [١]

ومع ذلك لم نعدم من يصوره متأبيا أن يكون من رعايا القصـر وسـدنته ، يقول الدكتور شوقى ضيف " وحاول الخديو عباس أن يرعاه ، ولعـل ذلـك سبب مدحه له ، ولكن نفسه المصرية أبت عليه أن يكون من رعايا القصـر وسدنته ، وبدلا من أن يتجه إلى عباس ورعايته ، اتجـه إلـى خصومـه الشعبيين ، وحامل لوائهم الشيخ محمد عبده الذى كان يكاتبه من السـودان ، إنه يفضل كسرة بيته وما هو فيه من عوز وإملاق ، على عباس وذهبه ، وانتصرت مصر فى شخصه على القصر وصحبه [٢]

أعتقد أنى مثل هذا الكلام ، إطلاق للقول على عواهنة . فالقـارئ لمدائـح حافظ فى عباس فى ذلك الوقت الذى أحيل فيه إلى المعاش ولم يجد عمـلا ، وظل يتقرب إلى عباس من كل طريق ، يلحظ إصرار حافظ علـى زعزعـة مكانة شوقى فى القصر ، ولكنه لم يستطع ولم يوفق ، فراح يمدح شـوقى حتى يسير بجواره ، أو وراءه إن استطاع فى دهاليز القصر. والغريـب أن الدكتور شوقى ضيف عنون لمقاله بقوله " دراسة تاريخيـة لشـعر حـافظ إبراهيم " ومع ذلك فقد وقع فى خطأين تاريخيين

الخطأ الأول : ويتمثل فى قوله " ومـا زال لـهيب سـخطة علـى كتشـنر والانجليز يضطرم فى فؤاده ، حتى ثار عليه مع طائفة من رفاقـه الضبـاط

---

[١] الديوان ص٢٨.

[٢] فصول فى الشعر ونقده . د/ شوقى ضيف ص٣٥٢ دار المعارف الطبعة الثالثة.

ثورة تعيد إلى ذاكرتنا ثورة الضباط الأحرار على توفيـــق أيـــام عرابـــى ، وفكرت الحكومة المركزية فى محاكمتهم ، ثم رأت الاكتفاء بإبعــــادهم عـــن مصر (١) وهذا الكلام ينقضه تماما ما سجله حافظ إبراهيم بنفسه فى كتابه " ليالى سطيح" عندما شدد الإنجليز قبضتهم على مصر والسودان بعد حـــادث فاشودة ، ونزعوا سلاح الجند مخافة اندلاع الثورة ، وتمرد فريق من الجند المصريين مع جماعة من السودانيين على هذه الأوامر . وجاء المحقـــــق ، وانتزع ما يزيد على ثمانين اسما من أفواه الناس ، يقول حافظ "فوالله الذى علم آدم الأسماء كلها ما اشتملت خريطة المحقق على اسم وصاحبه غـــــير مكذوب عليه" (٢) كما يشير إلى أن المحقق قد اســـــتنكر هـــذه الأســـماء ، فضرب القداح ، وخرج اسم حافظ كما يقول من بين هؤلاء الضباط " ولقـــد كنت أحد أولئك الذين ضرب عليهم بالقداح وهأنذا وليس وراء مـــابى مـــن سوء الحال غاية (٣)

والأمر الآخر : هو إشارة الدكتور شوقى ضيف إلى الفترة من ســـنة ١٩٠٣ إلى ١٩١١ م بأنها أخصب فترة فى شعر حافظ السياسى .وذلك فى قولــــه : " وقد عنفت الثورة بنفس الجندى القديم فاقتحم بقلمه وأسنة أبياته ميـــادين السياسة والإصلاح الاجتماعى فى جرأة وحماسة بالغة ، وكل من يقرؤه فـــى هذه السنوات الثمان من حياته لا يملك إلا أن يطأطأ الرأس له إجلالا ، فقـــد أصبح أقوى صوت شعرى للشعب وأضخمه. يصرخ فى وجـــــه المســـتعمر يريد أن يزلزل به الأرض زلزالا ، و يصرخ فى أمته يريد أن يدفعـــها إلـــى الثورة دفعا ، ولكن أمته لابد لها من سلاح ، ولابد أن تتســـلح للمســـتعمر

---

(١) فصول فى الشعر ونقده ص ٣٥١.

(٢) ليالى سطيح ص ٧٤.

(٣) ليالى سطيح ص ٧٩.

بالعلم وبالخلق القوى ، ولابد أن تتخلص من كل ما يفت فى عضدهـــا مــن نقائص ومعايب ، فليصرخ حافظ هنا وهناك حتى يستنهض همة شـــعبه ، و حتى يحفزه إلى ما يريد من نهضة قوية. وأقول إن الدراسة التاريخية لشعر حافظ تؤكد أن أسوأ فترة فى تاريخ شعره هى تلك الفترة التى أحيـــل فيـــها إلى المعاش وظل يبحث عن عمل فلا يجد ، ويستجدى الخديـــوى ، ويمـــدح الإنجليز. وإذا كان الدكتور شوقى ضيف قد صور حافظ متأبيا على القصر ، مترفعا على الملك مجاملة لحافظ فإن الحقيقة التاريخية تؤكـــد أنـــه طـــرق أبواب القصر فما فتحت له .ويرسم الدكتور عبد الحميد سند الجندى صـــورة صادقة لهذا فيقول : وهكذا نرى حافظ بعد خروجه من الجيش يلقى ألوانـــا من قسوة الحياة ، وينظر إلى زميله شوقى فيراه يرتع فـــى بلهنيـــة مـــن العيش فى ظل السراى فيطوى نفسه على مرارة محرقة ويتشوف إلـــى أن يظفر بشئ من الحظوة لدى الخديوى فيهتبل كل فرصة ليزجى إليه عقـــودا منظومة من المديح ، يقبل عيد الفطر فيزف إلية تهنئة ممزوجة بالرجاء أن ينال شيئا من العطف والتقريب يقول فيها :-

إلى سدة العباس وجهت مدحتى* بتهنئة شوقية النسج معطاء

مليك أباح العيد لثم يمينة * وياليت ذاك العيد يبسط أعنادى

ويحمل عنى للعزيز تحية * ويذكر شيئا من أحاديثى وأخبارى

وحافظ كما ترى يجعل شوقى شاعر السراى قدوته فى نظم الشعر ، وبذلـــك يشعره بأنه لا مطمع له فى منافسته ، لو قدر له أن يحظى بشئ من تقريـــب الخديو له ، وهو كذلك يشير إلى أنه لم يستطع الوصول اليه ليحظـــى بلثـــم يمينه الذى أباحه العيد ، ولذا فهو يعتذر عن تقصيره .ويقبل عيد جلـــوس الخديوى فينظم له تهنئة فيها تظامن وتضاؤل أمام الخديو وشاعره شوقى ،

وفيها التماس المعذرة إذا عجز شعره عن إيفاء الخديو ما هو خليق به من مدح لأن شوقى لم يبق له معنى يقوله.

لم يبق أحمد من قول أحاوله * فى مدح ذاتك فاعذرنى ولا تعب

فلست ممن سمت بالشعر همتهم * إلى الملوك ولا ذاك الفتى العربى

لكن عيدك يا عباس أنطقنى * كالبدر أنطق صوت البلبل الطرب

ولكن ذلك لم يجده فتيلا ، ولم يحظ من الخديوى بالنظرة التى كان يبتغيها ، وعاش معدما أكثر من عشر سنوات بعد عودته من السودان سنه ١٩٠٠ إلى أن من الله عليه بوظيفة فى دار الكتب ومع ذلك لم يكف عن محاولة التقرب من الخديوى ، حتى أنه لم تغمره الغبطة حين أنعم عليه برتبة البكوية " سنه ١٩١٢ م إلا لأنها سبيل إلى ذهابه مختالا إلى عابدين ليلثم يد الخديوى محققا مطية الرجاء

وأمشى إختالا إلى عابدين * يطالعنى بدرها عن كثب

وألثم كف كريم الجدود * غياث العفاة مزيل الكرب

وأحتث بين وقود السراة * مطايا الرجاء لذاك الرحب

ومع كل ذلك لم يقدر له أن يحظى بمكان فى السراى(١) فهل بعد ذلك يقول الدكتور شوقى ضيف أن هذه كانت أخصب فترة فى حياته ، تنحنى الرأس له إجلالا ، وأن الخديوى حاول أن يضمه شاعرا للقصر ، وأن حافظ قد ترفع وتأبى على الخديوى؟ ويسميها دراسة تاريخية ؟ اللهم إن هذا افتئات على التاريخ ومجاملة للشعراء على حساب تاريخ الأمة.

---

(١) حافظ إبراهيم شاعر النيل ص ٣٨

مدح حافظ للسلطان عبد الحميد : -

مدح حافظ السلطان عبد الحميد بقصيدتين ، مرة يهنئه فيها بعيد جلوسه سنه ١٩٠١ ومرة أخرى يهنئه بعيد جلوسه سنه ١٩٠٨ م

القصيدة الأولى فى تهنئة السلطان عبد الحميد بعيد جلوسه سنه ١٩٠١م(١) وهو يحس من أول القصيدة بجلال الموقف ، وجلال الممدوح ، ولامجال لغزل ، ولا مجال للحديث عن قصائده ، ولا مجال حتى لطلب العطاء ، فالسلطان فوق هذا كله ، إذن ليرسم صورة من بداية القصيدة لهذا الجلال ، وهذا التهيب الذى يحس به وهو يمدح عرش الخلافة:-

لمحت جلال العيد والقوم هيب * فعلمنى أى العلا كيف تكتب

ومثل لى عرش الخلافة خاطرى * فأرهب قلبى، والجلالة ترهب

لعل قوله " مثل لى عرش الخلافة " إشارة إلى أنه لم ير الخلافة إلى الأن ، مع مدحه للخليفة ، فيجد من يدعوه إلى زيارة عرش الخلافة.وبعد هذين البيتين مباشرة يدخل فى المدح ، بسؤال الفلك الدوار هل لاح كوكب على هذا العرش ، أو أشرقت شمس ، أوقر فى برج السعود كما قر هذا الخليفة ؟والغرض هو الإقرار بذلك . لقد سما فوق العرش ، والشرق فرح بهذا ، والغرب خذلان يرقب . وقد ترعرت دوحة الإسلام وأجدب الشرك ، ثم بدأ يتحدث عن إنجازاته ، فقد قرب بين المسجدين (المسجد الحرام والمسجد الأقصى) وذلك فى إشارة إلى الخط الحديدى الحجازى من دمشق إلى المدينة(٢)

فقام بأمر الله حتى ترعرعت * به دوحة الإسلام والشرك مجدب

---

(١) الديوان ص ١٥

(٢) بدأ العمل فيه فى مايو سنه ١٩٠٠م واحتفل بالفراغ منه وافتتاحه سنه ١٩٠٨م

وقرب بين المسجدين تقربا * إلى الملك الأعلى فنعم المقرب

ويتحدث عن خوضه لغمار الحروب فى نصرة الإسلام :-

وكم حاولوا فى الأرض إطفاء نوره * وإطفاء نور الشمس من ذاك أقرب

فراعهم منه بجيش مدجج * له فى سبيل الله والحق مذهب

يدانى شخوص الموت حتى كأنما * له بين أظفار المنية مطلب

إذا ثار فى يوم الوغى مال منكب * من الأرض والأطوار وانهال منكب

له من رئوس الشم فى البر مركب * ومن ثائر الأمواج فى البحر مركب

ثم يعرج على تلك الأحزاب المناوئة للسلطان عبدالحميد وخاصة حزب الفتاة ، فيصور اندحارهم وانتصار السلطان عليهم وذلك فى قولة :

مدح إداورد السابع[1] :-

قصيدة واحدة مدح فيها حافظ إدوارد السابع يهنئه فيـــها بتتويجـــه ســـنة ١٩٠٢ ويمدح الإنجليز ويصفهم بالأسود ، ويصف ملكتهم الراحلة (الملكـة فيكتوريا) بالشمس ويصف ملكهم الممدوح (إدوارد السابع بالبدر . وقـــد بلغ من قوة هذه المملكة أن أحدا لا يستطيع معاداتها ، فالأقدار تجرى بمـــا تشاء هذه الدولة .

من ذا يناويك والأقدار جارية

بما تشائين والدنيا لمن قهرا

ويعلن حافظ ضعف بلاده ، وخضوعها التام للإنجليز :-

إذا ابتسمت لنا فالدهر مبتسم

وإن كشرت لنا عن نابه كشرا

ثم يوضح سبب قوة هؤلاء الناس فهم يسودهم التعـــاون والعـــدل ، وعـــدم الغدر ، وسهروا على مرافقهم هم وملوكهم . وتشاوروا فى أمور الملك مـــن الملك إلى الوزير إلى الفلاح ، ولذا فهم بارعون فى الحرب والسياسة :-

لا تعجبن لملك عز جانبه

لولا التعاون لم تنظر له أثرا

ماثل دبك عرشا بات يحرسه

عدل ولا مد فى سلطان من غدرا

خبرتهم فرأيت القوم قد سهروا

---

[1] ولى الملك إداورد السابع حكم بريطانيا فى يناير سنة ١٩٠١ بعد موت الملكة فيكتوريا

على مرافقهم والملك قد سهرا

تشاوروا فى أمور الملك من ملك

إلى وزير إلى من يغرس الشجرا

وكان فارسهم فى الحرب صاعقة

وذو السياسة منهم طائرا هذرا

ثم يرسم صورة أخرى لعز هذه المملكة فهى تضم تحت سلطانها أمما كثيرة لو أمطرت السماء لمنعوا المطر فى الأرض من كثرتهم ، وهو يصرف الأمر من مصر إلى عدن ، فالهند وما ورائها من جزر ، لقد عجزت الأيام أن تقف فى طريقه حتى لجأت إلى المسالمة :-

اليوم يشرق " إدوارد " على أمم

كأنها البحر بالأذى قد زخرا

لو أمطر الغيث أرضا تستظل بهم

عدت رءوسهم عن وجهها المطرا

اليوم يلثم تاج العز محتشما

رأسا يدير ملكا يكلأ البشرا

يصرف الأمور من مصر إلى عدن

فالهند فالكاب حتى يعبر الجزرا

قد سالمته الليالى حين أعجزها

عقد لما حل أو تقويم ما أطرا (١)

---

(١) الديوان ص ٢٠

ثم يوجه خطابه إلى الممدوح ، فيدعو لـــه بـــالدوام ودوام الملـــك[1] ودوام الجند ودوام النصر ، هكذا فى عاطفته متدفقة وفى بيت واحد :-

"إدوارد" دمت ودام الملك فى رغد ودام جندك فى الآفاق منتصرا

ويختم قصيدته بتشبيه ملك الإنجليز بعمر بن الخطاب فى سيرته :-

كأنما أتت تجرى فى طريقته عدلا وحلما وإيقاعا بمن اسر أشرا [2]

-على هامش تلك القصائد

أستطيع أن أسجل أن أسوأ ثلاث سنوات مرت على حافظ إبراهيم من ســـنة ١٩٠٠ م إلى سنة ١٩٠٣م.

فقد أحيل على الاستيداع من ١٩٠٠/٥/٣م إلى ١٩٠٣/١٠/٣١م ، وكـــان مرتبه فى الاستيداع أربعة جنيهات .

وكتب متظلما من هذا قائلا : إنه مكث بخدمة الجيش ١٢ سنة ولم يحصـــل فيها على غير رتبة ملازم أول ، ومضى عليه أربـــع ســـنوات وهـــو فـــى الاستيداع ، وأنه فقد الأقدمية ، ويلتمس إحالته على المعاش ليتمكـــن مـــن وجود شغل له بنفقته ، ونفقة عائلته الكبيرة التى لا يقوم مرتب الاســـتيداع بلوازمها . وبناء على ذلك تقرر إحالته على المعاش كالتماسه[3] .

---

(١) ألا يدرى حافظ أن فى دوام ملكه ، دوام للذلة والاستعباد لمصر

(٢) الديوان ص ٢٠

(٣) مقدمة ديوان حافظ ص ٥٤ . " ولا أدرى ماذا يقصد بأسرته الكبيرة ، وقد تزوج بعـــد عودته من السودان وافترق الزوجان بعد أربعة أشهر ولم يغضب نتها ولم يعد بعد ذلـــك إلى الزواج " من مقال للسيدة بنت الشاطئ تحت عنوان "حواء الملهمة " مجلة الكتـــاب - السنة الثانية - الجزء العاشر - المجلد الرابع - أكتوبر ١٩٤٧ ص ١٥٩١ . وإن كان من الواجب علينا أن نذكر أن حافظ كفل طفلة يتيمة اسمها جليلة رباها فى داره حتى كـــبرت فزوجها وأثث لها بيتها ، وظل بوالديها برعايته حتى لقى ربه . كما ربى طفلة أخرى هى إحدى قريبات زوج خاله اسمها رفيعة حتى كبرت ولحقت بأهلها قبيل وفاته . وهـــو لـــم ينس رعاية السيدة أمينة هانم زوج خاله المرحوم المهندس محمد نيازى له أثنـــاء إقامتـــه

وقد أخذ يبحث له عن عمل يعمله ، وعرض نفسه علـــى جريـــدة الأهــرام ليتولى عملا فيها ولكنه لم يوفق . وظل بلا عمـــل حتـــى ســـنة ١٩١١م ، فساعده المرحوم أحمد حشمت باشا ناظر المعارف ، وعينه رئيســـا للقســـم الأدبى فى دار الكتب المصرية فى ١٤/٣/١٩١١م بمرتـــب قـــدره ثلاثـــون جنيها .[١]

وفى هذه السنوات العجاف أنشأ هذه القصيـــدة فـــى إدوارد الســـابع ســـنة ١٩٠٢م[٢] وهنأ عباس الثانى بعيد الفطر سنة ١٩٠١م [٣] وهنـــأ عبـــاس الثانى سنة ١٩٠١م [٤] وهنأ السلطان عبد الحميـــد بعيـــد جلوســـه ســـنة ١٩٠١م [٥] وهنأ عباس الثانى بعيد الأضحى سنة ١٩٠٤م [٦] وهنأه أيضـــا بالعام الهجرى سنة ١٩٠٤م [٧] وهنأ عباس الثانى بعيـــد الأضحـــى ســـنة ١٩٠٨م [٨] وهنأ السلطان عبد الحميد بعيد جلوسه سنة ١٩٠٨م [٩] وهنـــأ عباس الثانى بقدومه من الحج [١٠] وفضلا عن ذلك ، فقد كان دائما فى كـــل قصيدة من قصائده يقدم طلبا أو إعلانا عن وجود شاعر يصلـــح شـــعره أن يكون شاعر الأمير ، أو شاعر القصر ، أو شاعر الخلافة .

معهما فى مصر وطنطا ، فعندما مات خاله ، ولم تكن لزوجه أمينة هانم مـــن يكفلـــها ، ضمها حافظ إليه معززة مكرمة . مقدمة الديوان ص ٣٠ .

[١] مقدمة الديوان ص ٦٥ .

[٢] الديوان ص ٢٠ .

[٣] الديوان ص ١١ .

[٤] الديوان ص ١٣ .

[٥] الديوان ص ١٥ .

[٦] الديوان ص ٢٨ .

[٧] الديوان ص ٣١ .

[٨] [٩]الديوان ص ٤٠ .

[٩] الديوان ص ٤٤ .

[١٠] الديوان ص ٥٠ .

فى هذه القصيدة بالذات "مدح إدوارد السابع" لا نجد تبريرا للمدح ، فالشاعر لم يتحدث عن شعره ، ولا يرجو لنفسه أن يكون شاعر الإنجليز ، وقد ماتت الملكة فيكتوريا سنة ١٩٠١م والتى تولى بعدها الملك إدوارد السابع ، فرثاها حافظ إبراهيم وعزى قومها وقال فى تلك القصيدة التى نشرت فى يناير سنة ١٩٠١م :

أعزى القوم لو سمعوا عزائى * وأعلن فى مليكتهم رثائى

وأدعو الإنجليز إلى الرضاء * بحكم الله جبار السماء (١)

وقد نعجب ، إذا كان الرجل لا يحب الإنجليز ، ولن ينال رضا قومه من وراء ذلك ، ولا يسعى ليكون شاعرا لهم ، فلماذا رثى مليكتهم ، ومدح ملكهم . والجواب على ذلك يتضح من تلك الفترة التى رثى ومدح فيها . فقد حدثت ثورة فى السودان ، اتهم فيها ثمانية عشر ضابطا كان من بينهم حافظ (٢) فحوكموا وأحيلوا إلى الاستيداع. وكان الرجل مفزعا خائفا(٣) فظن إن هو مدح الإنجليز ورثاهم ، فإن ذلك قد يغير من نظرتهم إليه ، فكانت هذه القصائد فى بداية سسنة ١٩٠١م ، وسنة ١٩٠٢م (٤).

---

(١)ديوان حافظ ص ٤٥١ .

(٢) أشار إلى أنه قد اتهم ظلما وذلك فى ليالى سطيح ، وكما أشار الدكتور عبد الحميد سند الجندى فى كتابه "حافظ إبراهيم" شاعر النيل ص ٣٢ طبعة دار المعارف – الطبعة الرابعة

(٣) كما أشار الأستاذ محمود محمد شاكر فى مقاله "أوطاف" فقد كان إنسانا مذعور القلب فى غير ذعر . مجلة الكتاب – أكتوبر سنة ١٩٤٧ ص ١٥٦٩ .

(٤) أشار إلى ذلك الدكتور شوقى ضيف عندما قال : وكان فى هذه السنوات الأربع لا يزال خائفا يترقب المحتل وعدوانه وسجونه فأوحى إليه شيطانه أن يصانعه فرثى الملكة فيكتوريا حين ماتت فى عام سنة ١٩٠١م وهنأ خليفتها إدوارد السابع بتتويجه حسبما لا يصح حفيظة القوم عليه وحتى يأمن شرهم وكيدهم وما كانوا يمكرون . فصول فى الشعر ونقده . د. شوقى ضيف ص ٣٥٣ طبعة دار المعارف – الطبعة الثالثة .

***مدح حافظ للسلطان حسين كامل[1] :**

فى تهنئة السلطان حسين كامل بالسلطنة :-

يقول حافظ فى هذه القصيدة مهنئا السلطان حسين كامل بالسلطنة ، معلنـــا أنـه أهل لذلك ، وأن مكانه على العرش وفى قلوب الناس : وهو يغلف هـــذا المدح بالدعوة إلى تحصين الملك بالإحسان والعدل ، وهو أبو الفـــلاح فقـــد عنى به حتى تهيب المحل أن يزور الأرض . وهو ليس بجديد على الحكـــم فقد تولى المناصب فى عهد أبيه إسماعيل وأخيه توفيق وابن أخيه عبـــاس الثانى ، وقد كان حياة لمجلس الشورى ، فما جلس به عضو أشل . يقـــول حافظ :-

هنيئا أيها الملك الرجل الآجل * لك العرش الجديد وما يظل

تسنم عرش إسماعيل رحبا * فأنت لصولجان الملك أهل

وحصنه بإحسان وعدل * فحصن الملك إحسان وعدل [2]

على أن هذه الأبيات لا غبار عليها ، وإنما الغبار والكدر على الأبيات التـــى جاءت بعد ذلك ، يدعو فيها حافظ للسلطان حسين كامل إلى مولاه الإنجلـــيز ، فهم كرام ، ميامين النقيبة ، وهم كرام الأخلاق ، وهم صادقوا الـــود ، وإن شاورتهم وجدت الرأى السديد ، وإن ناديتهم أجابوك . فمدهم بحبال الود:-

ووال القوم إنهم كرام

ميامين النقيبة أين حلوا

---

[1] أعلنت الحماية على مصر فى يوم ١٨ من ديسمبر سنة ١٩١٤م . وفى يوم ١٩ مـــن ديسمبر خلع عباس عن العرش وكان غائبا وولى السلطان حسين كامل . الوقائع المصرية عدد ١٩ من ديسمبر سنة ١٩١٤م .

[2] الديوان ص ٦٨ .

لهم ملك على التاميز أضحت

ذراه على المعالى تستهـــــل

وليس كقومهم فى الغرب قوم

من الأخلاق قد نهلوا وعلوا

فإن صادقتهم صدقوك ودا

وليس لهم إذا فتشت مثـــل

وإن شاورتهم والأمر جـــد

ظفرت لهم برأى لا يزل

وإن ناديتهم لباى منهـــم

أساطيل وأسياف تســـل

فماددهم حبال الود وانهض

بنا فقيادنا للخير سهـــــل

هذه دعوة من حافظ إلى ربط أواصر الصداقة والود مع الإنجليز ، ومدح لــم يظفروا بمثله من أبناء جلدتهم ، وهو مدح سافر للإنجلــــيز (١) ، مخافـــة الإنجليز ، ومخافة ضياع الوظيفة فى دار الكتب ، وحافظ هو الذى يقول :

---

(١) وبهذه المناسبة فقد فزع شوقى أشد الفزع بعد خلع عباس وتولية حســـين كـــامل ، أن يصب عليه الإنجليز جام غضبهم ، وأن يطوحوا به كما طوحوا بولى نعمتــــه ، فســـارع بنشر قصيدة يهنئ فيها السلطان حسين كامل بالعرش ويمدح الإنجليز . انظر فـــى الأدب الحديث. عمر الدسوقى جــ٢ ص ١٠١ .

إذا نطقت فقاع السجن متكأ

وإن سكت فإن النفس لم تطب(١)

وقد علق أحمد الحوفى على هذه القصيدة بقوله : "لكن حـــافظ إبراهيـــم زل أكثر من شوقى وأشنع ، فقد دعا السلطان حسين كامل إلى موالاتهم لأنـــــهم ميامين النقيبة ، ذوو ملك مجيد ، وخلق حميد"(٢)

ويختتم قصيدته بدعوة السلطان حسين بالسير فى طريق المجـــد ليســـعدهم بخير عهد ، فأمره طاعة ، ورضاه غنم وسيفه قاطع ونداه جزل .

-القصيدة الأخرى فى مدح السلطان حسين كامل :-

وقد ألقاها بين يدى زيارته لمدينة طنطا ، فـــى ٦ مـــايو ١٩١٦م. وهـــى قصيدة تقليدية فى مدحها ، ليس فيها مبالغة ، لا يطلب لنفسه مـــن غنـــم ، وما عليه فى القصيدة من غرم . فهو يشير إلى أن المواسم بطنطا قد زادت موسما بزيارة السلطان ، وأن الإقليم قد أخصب حين زاره ، فليهنأ بملكـــه ، ولينهض بشعبه .

فى ساحة البدوى حلت ساحة

عز البلاد بعزها موصول

وأتى الحسين يزور قطب زمانه

يرعى ويحرس ركبه جبريل

زادت مواسمنا (بطنطا) موسما

لمليكه التقديس والتبجيل (٣)

---

(١) الديوان : من قصيدة فيها مجد الترك والعرب سنة ١٩٠٠ ومطلعها :

ماذا أصبت من الأسفار والنصب   وطيى العمر بين الوخد والخبب

الديوان ص ٤٣٠ .

(٢) وطنية شوقى: د. أحمد الحوفى ص ٢٤٤. الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٨م.

(٣) الديوان ص ٧٥ .

مدح حافظ للملك فؤاد الأول :-

مدح حافظ إبراهيم الملك فؤاد الأول بقصيدة أنشدها بين يدى جلالته حين زيارته مدرسة فؤاد الأول بقصر الزعفران فى ديسمبر سنة ١٩٢٢م .

والمناسبة هى افتتاح مدرسة ، والمكان هو قصر الزعفران بالعباسية ، وهو من القصور التى بناها الخديوى إسماعيل ، وقد استبدل به الملك فؤاد قطعة أرض فى مركز طلخا مديرية الغربية من أملاك الحكومة . ومع ذلك يقول له حافظ فى قصيدته :-

(أبا فاروق) أنت وهبت هذا

لمصر وهكذا منح الكريم

وهى فرصة لحافظ أن يبدأ قصيدته بالحديث عن هذا القصر ، وفعلا بدأ قصيدته بسبعة أبيات وصف فيها القصر قديما وحديثا :

أقصر الزعفران لأنت قصر

خليق أن يتيه على النجوم

كلا عهديك للأجيال فخر

وزهو للحديث وللقديم

ثوى بالأمس فيك علا ومجد

وأنت اليوم مثوى للعلوم

فمن نبل إلى مجد أثيل

إلى علم إلى نفع عميم

أضفت إلى صروح العلم صرحا

بزورة ذلك الملك الحكيم

فيالك منزلا رحبا سريا

بنته أنامل الذوق السليم

وحاطته ببستان أنيق

يريك جماله وجه النعيم (١)

ثم يلتفت بعد ذلك إلى مدح الملك فؤاد ، فهو قد وهب هذه الدار لمصر ، وتلك عطايا الكريم ، ولا عجب في ذلك ، فمصر على ولاء لهذا الملك لخلقه وبره ورعايته ، وشده للعزائم . فإذا كان اليوم يفتتح مدرسة ، فبالأمس كانت صلاته فى الجامع الأزهر ، وزيارته له ، وكان التهليل من الشعب الذى جمع بين تاج الدنيا وتاج الدين :

(أبا فاروق) أنت وهبت هذا

لمصر وهكذا منح الكريم

ولا عجب فمصر على ولاء

ومالكها على خلق عظيم

يطالعها ببر كل يوم

ويرعاها بعين أب رحيم

ويرهف من عزائم آل مصر

إذا حارت لدى الخطب الجسيم

كسوت الأزهر المعمور ثوبا

من الإجلال والعز المقيم

قضيت به الصلاة فكاد يزهى

بزائره على الركن الحطيم

---

(١) الديوان ص ١٠٧ .

رأى فيك (المعز) زمان أعلى

قواعده على ظهر الأديم

فهش وهزه طرب وشوق

كما هش الحميم إلى الحميم

وهلل كل من فيه ودوت

به أصوات شعبك كالهزيم

كذا فليحمل التاجين ملك

يعز شعائر الدين القويم

ويخشى ربه ويطيع مولى

هداه إلى صراط مستقيم(١)

وبعد هذا المدح بالصلاة ، وخشية الله وطاعة المولى الذى هداه . وإن شابه بعض المبالغات كوصفه الأزهر وقد تاه بزائره على الركن الحطيم ، بعد هذا المدح بتلك الصفات والخلال سواء وجدت فى الملك فؤاد ، أو حثه الشاعر من خلال مدحه ليتصف بها ، ثم يعرج بعد ذلك على الحديث عن البرلمان ، وتلك الدار التى تبنى له ، فهى تجمل العرش والملك ، ولذا فهو يطلب من الملك فؤاد أن يسعدها بالدستور ، فهم قد نهضوا على يد المليك ، فليحط الشعب بعنايته ليحفه الشعب بالولاء ، ويختم قصيدته بهذا البيت :

فحطنا بالرعاية كل يوم

نحفك بالولاء المستديم

---

(١)الديوان ص ١٠٨ .

ونلاحظ فى مدحه للملك فؤاد خلو القصيدة من طلب العطاء ، أو الحديث عن شعره ، وما شابه ذلك .

-القصيدة الثانية :

وهى تهنئة للملك فؤاد بعيد جلوسه ، وقد طالت هذه القصيدة على غير عادة حافظ حتى وصلت إلى خمسة وخمسين بيتا . وخلصت كلها لمدح الملك فؤاد من بدايتها إلى نهايتها ما بين الشدو بأصله وأرومته وعزه ، وما بين الإشادة بإصلاحاته العديدة من إقامته الجامعة وإنشاء مدرسة البحرية ، والأسطول الجوى ، ويقول فى بداية القصيدة :-

أرأيت رب التاج فى

عيد الجلوس وقد تبدى

وشهدت جبريلا يمد

دعليه ظل الله مدا

ونظرت تطواف القلو

ب ساحة العرش المفدى

وسمعت تسبيح الوفو

د بحمده وفدا فوفدا

هذا (ابن اسماعيل) رب

ب النيل من أغنى وأسدى (١)

ويتحدث عن إنجازاته فيقول :-

---

(١)الديوان ص ١٤٤ .

وأقمت جامعة بمص

ر تشد أزر العلم شدا

كم سيد بالعلم كا

ن برغمه للجهل عبدا

ورفعت فى ثغر الثغو

ر لمنشآت البحر بندا

أسست مدرسة تعيـــ

د لنا بملك البحر عهدا

فمتى أرى أسطول مصـــ

ر يثير فوق البحر رعدا

ومتى أرى جيش البلا

د يسد عين الشمس سدا

ونظرت فى الطيران نظـــ

رة مصلح لم يأل جهدا

أعددت عدته ولم

تر منه للأوطان بدا

أعظم بأسطول الهوا

ء إذا انبرى فسطا وشدا

إلى أن يختم قصيدته بقوله :-

دم يا (فؤاد) مؤيدا

بالمال والأرواح تفدى

وأعد لنا عهد المعز

الفاطمى فأنت أهدى

- مدح الساسة والحكام:-

مدح الساسة والحكام ، لا يقتصر على تلك القصائد التى جاءت فى الديـــوان فى باب المدح ، بل أتت جل قصائده فى المدح فـــى بـــاب الاجتماعيـــات ، والسياسات ، بل وفى باب المراثى ، فالمرثية ما هى إلا مدح ، وهـــو قـــد رثى الملكة فيكتوريا ، فمدحها ومدح الإنجليز من خلالها .

وأول ما يقابلنا فى الاجتماعيات قصيدة إلى الخديوى عباس ، وقد قالها فـــى سنة ١٩١١م ، ونراه يبدأ قصيدته بالغزل فيطيل حتى يشغل سبعة وعشرين بيتا ، ثم يتخلص من الغزل ليصل إلى المدح بهذا البيت .

أقسمت (بالعباس) إنى صادق

فمريهم بجلاله أن يقسموا

ملك عدوت على الزمان بحوله

وغدوت فى آلائه أتنعم

النجم من حراسه ، والدهر من

خدامه وهو العزيز المنعم[1]

---

[1] الديوان ص ٢٩٠ .

ويشغل المدح أحد عشر بيتا من القصيدة ، ثم يعرج على الغرض الأصلـــي من القصيدة وهو الفتنة التى اشتعلت بين المسلمين والأقباط فيدعـــو إلـــى جمع الشمل ، ورأب الصدع قائلاً :-

قد ضمنا ألم الحياة وكلنا

يشكو فنحن على السواء وأنتم

وينادى على الخديوى أن يجمع الشمل بقوله :-

واجمع شتات العنصرين بعزمة * تأتى على هذا الخلاف وتحسم

فكلاهما لعزيز عرشك مخلص

وكلاهما برضاك صب مغرم(١)

ومما يؤكد ما ذكرناه من أن كثيرا من قصائد المدح قد أدرجـــت فـــى بـــاب الاجتماعيات والسياسات ، تعليق شارح الديوان على هذه القصيدة بقولـــه " يلاحظ أننا أثبتنا هذه القصيدة فى الاجتماعيات مع ما تضمنتـــه مـــن مـــدح الخديوى عباس ، لأن غرضها الأول مسألة اجتماعية ، وهى الفتنـــة بيـــن مسلمى مصر وأقباطها إذ ذاك "(٢)

وقال حافظ إبراهيم مخاطباً (السير مكماهون) الذى عينته إنجلترا معتمـــداً لها وقد نشرت هذه القصيدة فى يناير سنة ١٩١٥م .

أى (مكمهون) قدمت بالقصد الحميد وبالرعاية

ماذا حملت لنا عن الملك الكبير وعن (غراية)؟

أوضح (لمصر) الفرق ما بين السيادة والحماية

---

(١) الديوان ص ٢٩٢ .
(٢) الديوان ص ٢٨٨ .

وأزل شكوكا بالنفوس تعلقت منذ البداية

ودع العهود فإنها فيما مضى كانت رواية

أضحت ربوع النيل سلطنة وقد كانت ولاية

فتعهدوها بالصلاح وأحسنوا فيها الوصابة

إنا لنشكو واثقين بعدل من يشكى الشكاية

نرجو حياة حرة مضمونة فى ظل راية

إلى أن يمدحهم قائلاً :-

أنتم أطباء الشعوب وأنبل الأقوام غاية

أنى حللتم فى البلاد لكم فى الإصلاح آية

رسخت بناية مجدكم فوق الروية والهداية

وعدلتم فملكتم الدنيا وفى العدل الكفاية[١]

وهذه القصيدة تطلعنا على حافظ فى أسر الوظيفة وهو يعــــترف للإنجلــيز بالسيادة ، وأنهم أطباء الشعوب ، وأنبل الأقوام غاية !! فهذه النغمة التـــى يمجد فيها الإنجليز ، ويشيد بعدلهم ، ومقدرتهم على الإصــــلاح ، ويطلــب منهم أن يهتموا بشئون التعليم فى مصر ، ويتعــــهدوا البــلاد بالرعايـــة ، ويقول لهم أنهم أنبل الشعوب وأعدلهم ،" تشعرنا بأن حافظا نسى أن مصـــر محتلة ، وأنها كانت تطالب بالاستقلال ، وكأن لم تكن ثمة صرخات مدوية"

---

[١] فى الأدب الحديث : عمر الدسوقى جــ٢ ص ١١٤ .

▪مدح حافظ للإنجليز :▪

*فى رثاء الملكة فيكتوريا : وقد نشرت فى يناير سنة ١٩٠٤ م

توفيت الملكة فيكتوريا سنة ١٩٠١م ، وهى ملكة الإنجليز المستعمرين لمصر فى ذلك الوقت ، والقوم لا يعرفون لغتنا ، ولن يسمع هذا العزاء أحد إلا قومه المساكين كما يقول الأستاذ محمود شاكر معلقا على هذه القصيدة:

"فأى شاعر اهتدى إلى الحق يخطر على باله أن تموت ملكة بريطانيا التى كان زمانها بلاء مصوبا على بلاده ، فإذا هو يرثيها ويعزى قومها الذين غزوا بلاده وساموها الخسف وأى خسف ؟ هو الخسف الذى شهده حافظ بعينيه وأبصره بباصرتيه ونشر هذا الرثاء الغث فى يناير سنة ١٩٠١م والذى لن يسمعه أحد إلا قومه المساكين"

يقول حافظ فى رثاء الملكة فيكتوريا(١) :

أعزى القوم لو سمعوا عزائى

وأعلن فى مليكتهم رثائى

وأدعو الإنجليز إلى الرضاء

بحكم الله جبار السماء

فكل العالمين إلى فناء

ويستطرد فى وصفها بالقوة :-

وكنت إذا عمدت لأخذ ثأر

أسلت البر بالأسد الضوارى

---

(١) مجلة الكتاب : أكتوبر سنة ١٩٤٧م ص ١٥٧٠ .

وسيرت المدائن فى البحار

وأمطرت العدو شواظ نار

وذريت المعاقل فى الهواء

ويصف قومها بالأبطال الأفذاذ فيقول :-

أعزى فيك أبطال النزال

ومن قاسوا الشدائد فى القتال

وألقوا بالعدو إلى الوبال

ولم يمنعهم فوق الجبال

لهيب الصيف أو قر الشتاء

وقد أشرت إلى السر فى مدح حافظ للإنجليز ، فى هذه السنة ، خوفا من بطشهم به بعد اتهامه بالثورة وإحالته إلى الاستيداع ثم المعاش .

فى حادثة دنشواى :-

وفى حادثة دنشواى نرى حافظ يتناول هذا الحدث الجلل – الذى هز وجدان المصريين جميعهم ، وأثار الأنفس فى داخل البلاد وخارجها – بطريقة فيها خنوع وذلة ، وفيها استعطاف وتذلل :-

أيها القائمون بالأمر فينا

هل نسيتم ولاءنا والودادا

خفضوا جيشكم وناموا هنيئا

وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا

وإذا أعوزتكم ذات طوق

بين تلك الربا فصيدوا العبادا

إنما نحن والحمام سواء

لم تغادر أطواقنا الأجيادا

لا تظنوا بنا العقوق ولكن

أرشدونا إذا ضللنا الرشادا

لا تقيدوا من أمة بقتيل

صادت الشمس نفسه حين صادا

ويخرج من هذه النبرة المستخزية الذليلة إلى نبرة أشد وأعلى قليلا :-

جاء جهالنا بأمر وجئتم

ضعف ضعفية قوة واشتدادا

أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو

أنفوسا أصبتم أم جمادا

ليت شعرى أتلك بحكمة التفتيـــ

ش عادت أم عهد نيرون عادا

ثم يعقب ببيتين فيهما استصراخ واستنهاض لأمـــة النيـــل ، ولكنـــه رمـــز وإشارة من طرف جفى لا يكاد يلمح :-

أمة النيل أكبرت أن تعادى

من رماها وأشفقت أن تعادى

ليس فيها إلا الكلام وإلا

حسرة بعد حسرة تتهادى

ونلاحظ أنه قد التفت بعد هذا إلى المدعى العمومى(١) وكان مصريا ، فـواح يعنفه ويزجره ، ويصفه بأنه لا يستحق أن يشرب من ماء النيل الـذى رواه وأنبته فكان شوكا قتادا :-

أيها المدعى العمومى مهلا

بعض هذا فقد بلغت المرادا

قد ضمنا لك القضاء بمصر

وضمنا لنجلك الإسعادا

فإذا ما جلست للحكم فاذكر

عهد مصر فقد سفيت الفؤادا

لا جرى النيل فى نواحيك يا مصر

ولا جادك الحيا حيث جادا

أنت أنبت ذلك النبت يا مصر

فأضحى عليك شوكا قتادا

أنت أنبت ناعقا قام بالأمس

فأدمى القلوب والأكبادا

إيه يا مدرة القضاء ويا من

---

(١) إبراهيم الهلباوى بك ، وكان قد وعد بأن يكون من رجال القضاء ولدفاعه عن الإنجلـيز فى هذه الحادثة . الديوان ص ٣٣٥ .

ساد فى غفلة الزمان وشادا

أنت جلادنا فلا تنس أنا

قد لبسنا على يديك الحدادا(١)

ونلاحظ الزجر والقسوة والعنف فى مخاطبته ، وهو يستحق ذلك ولا شـــك، ولكننا نستفسر عن غياب هذه القسوة والشدة عند مخاطبـــة مـــن شـــنقوا المصريين .

فى استقبال اللورد كرومر :-

وإذا كنا قد وصفنا قصيدة دنشواى بأنها استخذاء وتذلـــل للإنجلـــيز فـــإن قصيدته فى استقبال اللورد كرومر تحمل هذا الاستخذاء وتحمل افزع منــــه ؛ فقد جاء تقرير اللورد كرومر بعد هذه الحادثة وفيــــه إهانـــة للمصرييـــن ، وأنهم لا يرعون جميلا ، فكيف استقبله حافظ إبراهيم ؟ لقد استقبله بالعتـــاب كأنه يدل عليه بصداقة أو إخاء بينهما ويطلب منه جميل المراجعة :-

أهلا بساكنك الكريم ومرحبا * بعد التحية إننى أتعتب

نقلت لنا الأسلاك عنك رسالة * باتت لها أحشاؤنا تتلهب

ماذا أقول وأنت أصدق ناقل * عنا ولكن السياسة تكذب

علمتنا معنى الحياة فما لنا * لا نشرئب لها ومالك تغضب؟

أنقمت منا أن نحس؟ وإنما * هذا الذى تدعو إليه وتندب

أنت الذى يعزى إلية صلاحنا * فيما تقرره لديك وتكتب

إن ضاق صدر النيل عما ناله * يوم الحمام فإن صدرك أرحب

---

(١)الديوان ص ٣٣٦ وقد نشرت هذه القصيدة فى ٢ يوليه سنة ١٩٠٦م .

أو كلما باح الحزين بأنة * أمست إلى معنى التعصب تنسب

رفقا عميد الدولتين بأمة * ضاق الرجاء بها وضاق المذهب

رفقا عميد الدولتين بأمة * ليست بغير ولائها تتعذب

أرأيت إلى تسميته بعميد الدولتين ، عميد الدولة الإنجليزية والدولة المصرية؟

أرأيت إلى مصر وهى تتعذب ولاءا وهياما وعشقا للإنجليز؟

أرأيت إلى صدر النيل الذى ضاق قليلا ، وصدر الانجليز يجب أن يتسع لمثل هذا ؟

وبعد هذه الأبيات الموغلة فى التذلل ، راح يصور ما حدث فى دنشواى وعميد الدولتين غائب ، وأنهم عندما شنقوا أربعة ، شنقوا معهم خامساً وهو الحب الذى نكنه للإنجليز:-

طاحوا بأربعة فأردوا خامسا * هو خير ما يرجو العميد ويطلب

حب يحاول غرسه فى أنفس * يجنى بمغرسها الثناء الطيب

إلى أن يقول :-

فاجعل شعارك رحمة ومودة * إن القلوب مع المودة تكسب

ولا ينسى أن يختم قصيدته ببيتين يحار المرء فيهما ، هل هما توبيخ للمصرين واستنهاض لهممهم أم دعوة للعميد أن يترك الفتنة نائمة ؟يقول حافظ إبراهيم منهياً قصيدته :

وإذا سئلت عن الكنانة قل لهم * هى أمة تلهو وشعب يلعب

واستبق غفلتها ونم عنها تنم * فالناس أمثال الحوادث قلب (١)

والحق يقال أن حافظ إبراهيم قد اتبع هذه القصيدة بقصيدة أخرى نشرت فى أول يناير سنة ١٩٠٧ يرد فيها بلهجة فيها عنف على تلك التقريرات التى كان يكتبها عميد الدولة الإنجليزية عن مصر ، وكيف أنها تعيش فى رفاهية بفضل سياسة الإنجليز . يقول حافظ فى هذه القصيدة مخاطباً العميد :

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت * حواشيه حتى بات ظلما منظما

تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى * وأن أصبح المصرى حرا منعما

أعد عهد إسماعيل جلدا و سخرة * فإنى رأيت المنّ أنكى وآلما

عملتم على عزّ الجماد وذلنا * فأغليتم طينا وأرخصتم دما

إذا أخصبت أرض وأجدب أهلها * فلا أطلقت نبتا ولا جادها السما

ويتحدث عن حالة الغلاء وارتفاع الأسعار واصفا إياها فيقول

نهشُ إلى الدينار حتى إذا مشى * به ربّه للسوق ألفاه درهما

فلا تحسبوا فى وفرة المال — لم تفد * متاعا ولم يقصم من الفقر — مغنما

فإن كثير المال — والخفض وارف * قليل إذا حلّ الغلاء وخيما

وداع اللورد كرومر :

عميد الدولة الإنجليزية فى مصر ، بقى فيها من ١٨٨٣ إلى ١٩٠٧ بعد حادثة دانشواى الرهيبة ، وبعد التقارير السيئة التى كتبها عن مصر وها

(١) الديوان ص ٣٣٩ . وقد نشرت فى ١٧ أكتوبر سنة ١٩٠٦م.

هو يرحل عن البلاد ، فتهب قديحة الشعراء ومنهم حافظ إبراهيم إلى وداعه فكيف يكون الوداع عند حافظ؟

إن شاعرنا يعلن فى بداية القصيدة أنه سيلتزم الصدق ولا يكـــذب التـــاريخ قولته:

فتى الشعر هذا موطن الصدق والهُدَى * فلا تكذب التاريخ إن كنت منشدا

لقد حان توديع العميد وإنه * حقيق يتشيع المحبين والعدا

ومن ثم ينسال الشعر انسيالا فى توديع العميد ، مزودا بالكرامة فهو الطـــود الذى كان شامخا ، وهو البحر الذى كان مزبدا ، وعجيب أن تبقى الأهـــرام راسخة ، ولم تجزع عليه وكأنها لم تجد فى حماه الأمن والعطاء:-

فودّع لنا الطود الذى كان شامخاً * وشيع لنا البحر الذى كان مزبدا

وزوده عنا بالكرامة كلهـــــا * وإن لم يكن بالباقيات مــــزوّدا

فلم لاترى الأهرام يا نيل ميـــدا * وفرعون عن واديك مرتحل غدا؟

كأنك لم تجزع عليه ولم تكـــن * ترى فى حمى فرعون أمنا ولاجدا

ويعلن حافظ أنه وقومه متسامحون حتى مع الأعداء ، ولـــذا فـــهو يشـــيعه بالسلام ، ولو كان من سجيته المعاملة بالمثل ما مدّ يده مسلما :-

سلام ولو أنا نسيئ إلى الألى * أساءوا إلينا ما مددنا لهم يدا

ثم يعلن حافظ أنه سيمدح تلك الأيادى التى للعميد على مصر فإذا به قد أمّـن المصريين ، وناموا فى أمان ، وإذابه رحيم القلب يحمى الضعيف ، ويدفـــع عن المصريين حوادث الدهر . ويالها من أوصاف ترفع المستعمر وعميـــده إلى زمن الخلفاء الراشدين :-

سنطرى أياديك التى قد أفضتهـا * علينا فلسنا أمة تجحد اليـــدا

أمنا فلم يسلك بنا الخوف مسلكـا * ونمنا فلم يطرف لنا الذعر مرقدا

وكنت رحيم القلب تحمى ضعيفنا * وتدفع عنا حادث الدهر إن عـدا

ولولا ما حدث فى دنشواى ، وما وصمهم به فى تقريره من تعصف لـــذاب المصريون أسى عند الوداع فهو المصلح المتودد . هــذا هــو رأى حــافظ إبراهيم ، وبعد ذلك مسوق أراء المعارضين لسياسته ، والمؤيدين لــه ، ولا يعقل برأى فهو ليس من أهل السياسة:

فهذا حديث الناس والناس ألسن * إذا قال هذا ، صاح ذاك مفندا

ولو كنت من أهل السياسة بينهم * لسجّلت لى رأيا وبلغت مقصدا

ولكننى فى معرض القول شاعر * أضاف إلى التاريخ قولا مخلدا

ما هو دور الشاعر ؟ أضاف إلى التاريخ قولا مخلدا :-

فيا أيها الشيخ الجليل تحية * ويا أيها القصر المنيف تجلدا (١)

لئن غاب هذا الليث عنك لعله * لقد لبثت آثاره فيك شهدا

وإذا كان كرومر شيخا جليلا ، وقصد الدوبارة قصرا منيفـــا والمصريـــون سيذوبون أسى ليوم الفراق ، فماذا أبقى حافظ لأبناء الوطن؟

فى استقبال السير غورست(٢) :-

---

(١) الديوان ، ص ٣٤٤.

(٢) عين مستشارا لوزارة المالية من سنة ١٨٩٨ إلى سنة ١٩٠٤ م. وقد عين سـنة ١٩٠٧ م عميدا للدولة الإنجليزية بدلا من كرومر.

يشحذ حافظ ذهنه ، ويوقظ ملكة الشعر ، وبناته ليجدن عليه بالنفحات في هذا اليوم ، لبيتيه بهذا الشعر على أهل الخلود ، فهو سيدافع عن قومه وسيشكو من العميد إلى العميد. وفى الحقيقة فقد رسم صورة مقذعة للعميد السابق :-

رمانا صاحب التقرير ظلما * بكفران العوارف والكنود

وأقسم لا يجيب لنا نداء * ولو جئنا بقرآن مجيد

وبشر أهل مصر باحتلال * يدوم عليهم أبد الأبيد

وأنبت فى النفوس لكم جفاء * تعهده بمنهل الصدود

فأثمر وحشة بلغت مداها * وزكاها بأربعة شهود

إلى أن يقول :-

/ رمى دار المعارف بالرزايا وجاء بكل جبار عنيد /

معلنا عدم رغبة المصريين فيه ، فهم لا يطيقون له جوارا وقد أودى بهم أو كاد يؤدى فليذهبوا به إلى أى مكان

بحمد الله ملككم كبير * وأنتم أهل مرحمة وجود

خذوه فأمتعوا شعبا سوانا * بهذا الفضل والعلم المفيد

ومن ثم يتجه إلى العميد الجديد موصيا إياه بالسير سير حسنا ، فقد مل هذا الشعب ظلم السابقين :-

فضع حدّا لهم وأنظر إلينا * إذا أنصفتنا نظر الودود

وخبرّهم وأنت بنا خبير * بأن الذل شنشنة العبيد

وأن نفوس هذا الخلق تأبى * لغير إلاهها ذل السجود

وولّ أمورنا الأخيار منا * نثب بهم إلى الشأو البعيد

وأشركنا مع الأخيار منكم * إذا جلسوا لإيقام(١) الحدود

وأسعدنا بجامعة وشيد * لنا من مجد دولتك المشيد

إلى أن يقول فى نهاية القصيدة

وما أدرى وقد زوّدت شعرى * وظنى فيك بالأمل الوطيد

أجئت تحوطنا وترد عنا * وترفعنا إلى أوج السعود

أم اللورد الذى أنحى علينا * أتى فى ثوب معتمد جديد (٢)

وهو استفهام فيه حث للمعتمد الجديد ألا يسير سيرة سلفه حتى لا يلقى هذا الذم المقذع.

مدح الساسة والحكام فى شعر الزبيرى :-

ولقد نزعت من الضمير قصيدة * هى صوت إيمانى وصك جهادى

لو يصبغ الإنشاد لون خديعة * لأنفت عن نغمى وعن إنشادى

لو خالط الأنفاس شوب تملق * لحبست أنفاسى عن الترداد

تسعى القوافى لى فلا أحنى لها * قلما إذا جاءت بدون مراد

وأكاد وأرفضها إذا لم تكن * نزلت إلىّ على روى فؤادى [٣]

من ديوان الزبيرى "صلاة فى الجحيم"

---

[١] أشار محقق الديوان إلى أن "أيقام) لم ترد فى اللغة والذى ورد أقام بدون ياء . الديوان ص٣٥.

[٢] الديوان ص ٣٥١.

[٣] من قصيدة طويلة قالها فى حفل الطلاب العرب ودعا فيها إلى وحدة للأمة العربية تقوم على الصفاء والأخلاص وتتنزه عن الغش والنفاق .

الإمام عند اليمنيين :

كان الناس ينظرون من الخارج إلى اليمن على أنه القطر العربـــى الوحيـد الذى لا يوجد فيه استعمار وإنما هو محكوم من قبل أهله . فقد تـــم صلـــح "دعان"(١) "الذى تم بين الإمام يحي حميد الدين وعزت باشا الوالى الـــتركى على صنعاء وبدأ اليمن رسمياً فى الخروج قليلا من القبضة المباشرة للحكم العثمانى . كان ذلك فى بداية العقد الثانى من القرن العشرين (١٩١١م) بعد صراع شغل ما يقرب من ستين عاما هى كل الحقبة التى كانت تركيـــا قـــد أمضتها فى احتلالها الثانى لشواطئ اليمن وبعض المدن اليمنية.

وكانت أسرة "حميد الدين" قبل عقد الصلح قد ركبت موجة الكفاح الوطنـــى وصارت ، بذلك صاحبة الكلمة الأولى والنفوذ القوى على مراكز المقاومـــة وكان عميد الأسرة : أمير المؤمنين ، المتوكل على الله يحي بن محمد حميد الدين – كان يعد نفسه ليكون حاكم اليمن المطلق ولكن عقد صلح "دعـــان" بالشروط وبالكيفية التى تم بها قد أثار ريبة القوى الوطنية وخلق انقســـاما مبكرا فى صفوف لوطنيين "(٢) . ومن هنا فقد كانت ثورة الوطنيـــن تقـــابل بالاستنكار من خارج البلاد ، ما سبب الثورة وليس هنـــاك مـــن مســـتعمر غاشم ، وكل أمل الأقطار الأخرى أن تحكم بيد أهلها . وهو ما عـــبر عنـــه شاعرنا محمد محمود الزبيرى عندما قال : كانت المشـــكلة الكـــبرى فـــى الأقطار العربية الناهضة هو الاستعمار الذى شغل كل مشاعر الجيل العربـــى الحديث ، حتى سادت فكرة عامة عند العرب ، أن جميع آلامـــهم ومحنـــهم ومشاكلهم الصغيرة والكبيرة ، إنما هما من خلق الاستعمار ، وهذه تعبئـــة

(الزبيرى شاعر اليمن) عبدالستار الحلوجى ص ١١ سنة ١٩٦٨ مطبعة الكيلانى .

(١) اسم منطقة فى شمال اليمن.

(٢) الشعر المعاصر فى اليمن د/ عبدالعزيز المصالح ص١٦.

روحية ضد الاستعمار وتستحق الإعجاب ، لولا أنها بلغت فى التركيز حتـــى انحرفت عن المنطق السليم ، وأغفلت الأصول والعلل التى جلبت الاســـتعمار وكانت سببا فى تسلطه علينا . وقد كان الاستعمار وهو الذى كانت فى يـــده مصائر العرب ، يشجعهم على هذا التركيز الشديد ضده وذلك ليصدفهم عـــن النظر إلى الأسباب والقواعد التى يقوم عليها وجوده فى بلادنا "(١)

وقد صور الشاعر محمد محمود الزبيرى فى كتابه "خطـــر الأمامـــة علـــى الوحدة اليمنية " ما كان يعانيه الشعب فى ظل الحكم الأمامى ، من مجاعـــات وأوبئه وأمراض و ضرائب وسجن وقتل وهو يصور ذلك فيقول " وهـــالنى أن أرى هذه الضحايا البشرية وليس لها حكومة تشعر بمأســـاتها ، وتفكـــر فى اتخاذ أى إجراء لحمايتها من وحشة الموت الشامل (٢)

- **مدائح الزبيرى فى الإمام :-**

يهنئ الزبيرى الإمام بقصيـــدة منـــها :-

من نور هذا المحيا يشرق العيـــد	ويعبق المجد والعلياء والجـــود
ماللمحاكم تستفتى أهلتـــها	وأنت ياسيد الأقمار موجـــود
ما أنت إلا شعاع الله جاء بـــه	من غرّة المصطفى أباؤك الصيـــد[٣]

- **الوثنيـــات :-**

[١] الخدعة الكبرى ص ٦٥.

[٢] خطر الإمامة على الوحدة اليمنية : محمد محمود الزبيرى ص٣٩ دار الهنا للطباعة القاهرة سنة ١٩٧٣.

[٣] الزبيرى أديب اليمن الثائر . عبدالرحمن محمد العمرانى ص ١٧٣.

هكذا أطلق الزبيرى على قصائده التى مدح بها الأمام يحى ، ومدحه للإمام كان تجربة لمدى قدرة الشعر على الإصلاح ، وقد عبر عن ذلك بقوله " .... ومن هنا نشأت فكرة التطامن للعاصفة ، بعد أن وجدنا أنفسنا سجناء "جبل الأهنوم " وظهرت الثقة بمقدرة الشعر على إقناع الحكام بأننا لسنا أعداء ، بل إننا أبناءهم البررة ، وأننا على استعداد لأن نكون كسائر أفراد الشعب سامعين مطيعين ، نراهم كما يراهم الناس.

والهدف من ذلك إعادة التجربة بأسلوب يحفظ على الحكام كبرياءهم حتى إذا كانت الكبرياء هى التى تحول دون تسامحهم مع نشاطنا المرجو ، فإننا نكون بهذه المداراة قد ساعدناهم على أن يكونوا طيبين معنا.

وقد نجح الشعر هنا فى إقناعهم بأننا لسنا لهم بالأعداء ، فأطلقوا سراح البعض بعد تسعة أشهر [1]

▪ قصيدة الزبيرى فى مدح الإمام يحى :-

يبدأ الزبيرى قصيدته بقوله :

نور النبوة من جبينك يلمع * والملك فيك إلى رسالة ينزع

وبعد ذلك يقول :-

يكفيك أن الشعب حولك قائم يحنو إليك ويرتجيك ويخضع

دانت لعرشك أمة يمينة * يسمو بها عاد ويفخر تبعّ

---

(١) ديوان الزبيرى ص٧٠.

من أين يأتيك العدو وأنت فـــى   أرض تكاد صخورها تتشــــيع

ويلمح إلى ولى العهد مادحاً فيقـــول

ولىّ عهدك منك أكرم بضعـــة * أسد ليوث الغاب منه تـــروع

أودعته سر الخلافة فـــانبرى * وشذاك من أرادانه يتضـــوع

ونراه يهاجم الغرب ويجعل من الإمـــام بطـــلا :-

صديت عنا الغرب إذ هو شـــاخص * متحضر حتى يداك فـــيرجع

والدين أسمى فطرة وعقيـــدة * مما يرى المتمدن المتصنـــع

إن التمدن ضلّة فتانـــة * وإخالها عما قريب تقشـــع

فالمدينة ضلالة وفتنة ، والغرب عـــدو مضـــل مبيـــن ، والديـــن هـــو الدين الذى يدين به الإمام ، هو أسمى فطـــرة وعقيـــدة . ولا يقـــف عنـــد هذا الحد ، وإنما نـــراه يوبـــخ الرفـــاق علـــى فعلتـــهم،ويصفـــهم بأنـــهم أبالســـة:-

ولرب أفاك يظن بجهلـــه * أن السماء بجهله تتضعضـــع

يسعى ليفسد فى البلاد كأنـــه * أبليس فى ظلماته يتســـكع

ولكنه يعود فيستسمح الإمام لـــهؤلاء الرفـــاق ، ويطلـــب لـــهم الرحمـــة والرأفـــة ، تلك التى عمت أبناء الشـــعب :-

لطفاً أمير المؤمنين فإننـــا * جئنا من المخاوف نفـــزع

أعرضت عنا لحظة فتحولـــت * عنا وجوه الناس بعدك أجمـــع

ما ضاق صدرك عن أناس أشــــعلوا * نار الحروب وناصبو له وأقصفـــــوا

لما ظفرت بهم عطفت عليــــهم * حتى كأنهم بنوك الرضــــع

ما بالنا دون الورى لم نلق مــــا * كنا نؤمله وما نتوقـــع

حتى إذا جئناك نطلب نفحـــــة * هبت علينا منك ريح زعـــزع

افتنزل النقمات فينا وحدنـــــا * وجميع شعبك فى نعيمك يركــــع

ولا يسصل إلى هذا الحـــد ،حتـــى يـــروح يصـــف أهـــوال الســـجين ، وما لاقوه من عنت ، وما لاقى أهلوهم مـــن حـــزن ، ومـــا أصابـــهم مـــن هلع ، ويطلب منهم أن يستشفعوا إلـــى الأمـــير بالأطفـــال الرضّـــع علّـــه يرق ويرحـــم :-

رحلوا بنا منذ الصباح ولم نكـــن * ندرى أرحلة سائح أم مصـــرع

عرضت لنا تلك المطىّ كأنـــها * نعش يؤم بنا المقابر مســـرع

وتهافت الناس الجميع كأنـــهم * حفروا جنازة ميت لا يرجــــع

يتخاوصون بأعين مذعـــورة * تتجرع البلوى كما نتجـــرع

وأتت مواكب أهلنا لتردنـــا * بنحيبها عما إليه تزمــــع

تبكى وتنشد الأناة وترتجـــى * ألا نسير وتستغيث وتفـــزغ

جاءوا حيارى خائفين ومالـــهم * ذنب وقد يخشى البرى ويجـــزع

يبكون حيث دموعهم مـــردودة * حسرى وحيث بكاؤهم لا ينفـــع

قلنا لهم إنا لنأسف إذ نـــرى أكبادهم من أجلنا تتقطـــع

فاسعوا إلى المولى الإمام لعلـــه * يحنو على هذى القلوب ويخشـــع

صبوا المدامع تحت ظل حنانـــه * إن الحنان إلى المدامع يســـرع

وتحملوا معكم صغارا رضّعـــا * فعساه يعطفه الصغار الرضـــع

وتشفعوا بدموعهم ونحيبـــهم * إن الطفولة خير من يتشـــفع

وهو هنا يقدم لوحة ضارعـــة لـــهؤلاء الأهـــل بدموعـــهم وحزنـــهم ، وينقلنا الزبيرى إلى ساحة ضراعـــة قـــد حمـــل فيـــها الأهـــل أطفالـــهم ، وسمع بكاء الأطفال ودموعهم ، وكأنهم يطلبـــون الغـــوث مـــن الســـماء . ويلقنهم الزبيرى ما ينبغى أن يقولـــوه ، أو يقـــول هـــو ، لينطلقـــوا فـــى القول معه ، إنه يضرع ويســـتغيث :-

رحماك يا غوث اللهيف فإن ســـا * عات العذاب طويلة ما تقلـــع

ما بال أحشائى تأجج فى الدجـــى * فكأنما للنار فيها منبـــع

وكأن هذا الكون أصبح شـــعلة * والسحب قدراً فوقه تتلـــذع

هذى توافينا إليك منيبـــة * يبدو لها غضب الإمام فتفـــزع

ليست من القول الهراء وإنمـــا * هى مهجة ملفوظة تتصـــدع

جفت مدامعنا وفاض شـــعورنا * والشعر فى بعض المواطن أدمـــع

ثم يهتف ببيت القصيد – كما يقولون – فـــهو يريـــد أن يخـــرج مـــن السجن ، ويقنع بالحيـــاة :-

دع لى بقية مهجة أحيا بـــها * إنى لأرضى بالحياة وأقنـــع [1]

---

[1] أشار عبدالرحمن محمد العمرانى فى كتابه "الزبيرى أديب اليمن الثائر" إلى أن هذه القصيدة مخطوطة حصل على صورة لها من الأستاذ أحمد الشامى . ص١٧٠ .

ويقول فى قصيدة أخرى مستعطفاً الإمام يحي وهو فى سجن "الأهنوم" :-

حنانا يا أمير المؤمنينا * بأفئدة الرجال المخلصينا

فإن لم نستحق لديك عطفا * ورفقا بنا فارحم بنينا[1]

ويقول فى قصيدة إلى ولى العهد :-

ماذا تقول وأنت شاك مؤلم * والفكر عان والقوافى لوم

ما للسجين وقد تفاقم خطبه * إلا أنين لاذع وتبرم

فعلام تبنى الشعر قلبك شارد * وحشاك محترق وأنفك مرغم

لم يبق منك السجن إلا مهجة * مصدوعة أو مقولا يتلعثمُ

أو مقلة لم يبق من أضوائها * إلا شعاع السيف إذ يتبسَّم

الفارج الكربات عند طروقها * والكاشف الغمرات إذ تستحكم

وهو فى هذه الأبيات يرسم صورة مؤلمة لما يعانيه فى السجن ، فلم يبق منه السجن إلا مهجة مصدوعة ، ومقلة لم يبق أضوائها إلا شعاع ، وهذا الشعاع شعاع السيف ، والسيف هو سيف الإسلام أحمد ولى العهد . ولذلك يوجه له الخطاب بعد ذلك بقوله :-

أولىّ عهد المسلمين تحيّة * تجرى بها الأنفاس منى والدّم

إنّى أرجى فيك مجدا خالداً * تركته آثار النبوة فيكم

لك من علىّ وثبة موهوبة * ومن النبىّ تطول وتكرم

---

[1] الزبيرى (أديب اليمن الثأئر"ص ١٧٢.

كم من فؤاد قد تمزق خيفة * لما رآك على الكتائب تهجـم

تبدو بمعترك المنايا باسما * حتى كأنك بالمنايا معـــــرم

نظر الإمام فلم يجد بمقامه * إلاك نحو مقامه يتقـــــدم

لأبوك شمس أنت عين ضيائها * وجميع إخوتك الأكارم أنجـم

وكان لآبد من ختام القصيـدة ، وقـد مـدح الإمـام يحـي ، وولـده سيف الإسلام أحمد ، وبقيت الأسرة ، أسـرة الإمـام يحـي :-

يا آل يحي أين يذهب شعبنا * عنكم وما فى الأرض إلا أنتم

فيم العقوبة لست من أعدائكم * الله يعلمنى ولا أنا مجـــرم

أصمى حياتى بالوشاية كاذب * أصغى الإمام إليه إذ يتكلـم

أفكلما غاب أمرؤ عن لحظكم * ظفر الوشاة به وفاز اللـوم

ويختم القصيدة ببيتين يخاطب فيهما الإمام يحـي مسـتعطفا إيـاه:-

مولاى يا بطل الخلافة إن لى * قلما يشير إليك وهو محطم

يا غيث لاتنزل علىّ صواعقا * إنى لظمآن إليك متيم [1]

قصائد الزبيرى فى ولي العهد :-

خرج الشاعر الزبيرى من سجنه ، ولـم تلـن قناتـه ، وإنمـا خـرج ليعلن للشعب كله ، وللإمام يحي قبـل الشـعب ، أن العفـو عنـه وعـن أصدقائه لن يحولهم إلى شـعراء للإمـام ، ولـن يخرسـهم عـن قولـة الحق . وألقى الشاعر قصيدته "الخـروج مـن السـجن " ، " كـانت هـذه

(1) الزبيرى أديب اليمن الثائر : عبدالرحمن العمرانى ص ١٧١ ، وقد أشار إلى أنها مخطوطة حصل عليها من الأستاذ أحمد الشامى .

القصيدة ذات النبرة العالية المتحدية بداية هذا الانعطاف الكلىّ فى الشعر نحو الوطن ، كما كانت النشيد الوطنى ، أو "المارسيلييز" الذى ردده الشاعر وهو يغادر قصر الطاغية فى طريقه إلى الشعب بعد مهادنة عقيمة ، وبعد أمل كاذب لم يثمر سوى المخاوف والتهديد بالموت "[1] . يقول الشاعر محمد محمود الزبيرى فى هذه القصيدة

خرجنا من السجن شم الأنوف	*	كما تخرج الأسد من غابها
نمر على شفرات السيوف	*	ونأتى المنية من بابها
ونأبى الحياة إذا دنست	*	بعسف الطغاة وإرهابها
ونحتقر الحادثات الكبار	*	إذا اعترضتنا بأتعابها
ونعلم أن القضا واقع	*	وأن الأمور بأسبابها
ستعلم أمتنا أتنا	*	ركبنا الخطوب حنانا بها
فإن نحن فزنا فيا طالما	*	تذل الصعاب لطلابها
وإن نلق حتفا فيا حبذا	*	المنايا تجئ بها لخطابها [2]

هو إذن قرار الزبيرى بعد خروجه من السجن ، ركوب الخطوب والأهوال ، فإن فازوا فيا طالما ذلت الصعاب لطلابها ، وإن استشهدوا فهو المدام فى سبيل الوطن . وهو ما حدث للزبيرى فعلا ، من غربة وتشريد واستشهاد بعد ذلك . إلا أن هذه النهاية سبقتها

---

[1] الشعر المعاصر فى اليمن . د/ عبدالعزيز المقالح ص٦٢.

[2] ديوان الزبيرى ص٩٨

مرحلة فاصلة بين خروجه من السجن وإصراره على الجهاد ، وبين تنفيذ هذا الإصرار ، ألاوهى مرحلة وجوده فى تعز ، مادحاً لولى العهد ، حاملا للقب شاعر القصر ، وقد يكون عنده من المبررات لهذا المدح الكثير والكثير كما دافع عن نفسه ، وكما برهنت الظروف والأحوال ، ولكن تبقى هذه القصائد من صميم البحث والدراسة.

يصور الزبيرى ولى العهد فى ذلك الوقت بأنه كان بطلا قوميا بالنسبة لهم يدافع عن حريتهم ، ويحاول أن يقضى على الفساد فى حاشية الإمام ، وكان يغضب ويثور على أبيه ، ويتأوه على سجناء الشباب ، يقوم بدور إطلاق سراحهم . ولذا يقول الزبيرى " كنت فعلا فى سن النوازع الروحية معجباً بشخصيته ، مأخوذا بها ، وكنا تنتظر أن تكون تجربتنا معه ناجحة ، وأن يكون هو العوض للشعب عن خيبة الأمل فى أبيه ، وأن يكون هو المرحلة الأمنة التى يتطور فيها مصير بلادنا فى سهولة وأمن من الأخطار"[1]

يقول الزبيرى فى مدح الأمام أحمد ، أيام كان وليا للعهد :-

تبدو لنا فتهيم فيك عيوننا	*	وذكاء فى آفاقها لا ترمق
وكأنما صورت من أبصارنا	*	فتكاد تخطف بالجفون وتسرق
وترى العيون تسيغ نورك لهفة	*	وتضم محجرها عليك وتطبق
وتكاد تبلغك النواظر خلسة	*	وتشدّ أهدابا عليك وتغلق

[1] الديوان ص ٨٤.

عجلت بها نظراتها فتفتحت * حيرى ، ونورك زاخر يتدفق

فكأنها صاد يقبل كوثرا * فتهيج لوعته عليه ويشرق

عبّت وما رويت وأنى يرتوى * من طلعة الفردوس طرف شيق

خذ بالقلوب ففى يديك زمامها * والقلب يقرب بالولاء ويوثق

وانشر ضياءك فى سبيل حياتنا * فمسيرنا فى غير نورك موبق

طرحيث شئت بنا فأنا معشر * سنطير إثرك فى العلى ونحلقّ

كن كيف شئت لنا فإنا مصيرنا * بيديك والدنيا إليك تحـــــدق

يا حامل الشعب الكبير بقلبه * الشعب فى طيات قلبك يخفــق

جدد له عصر الجدود بعزمة * لو مست الماضى لجاءك يشرق

لا تبنه حجرا ولكن فيلقا * ينساب فيه للمنايا فيلـــق [1]

وهو هنا يمدح الإمام أحمد فـــى القصيـدة كلــها بأوصـــاف حســية ، فهو النور والضياء . وهم يدينـــون لــه بـــالولاء وســيحلقون وراءه فـــى أى سماء فمصيرهم معلـــق بـــه ، والشـــعب يخفـــق فـــى طيـــات قلبـــه ، فليجدد عصر الأجداد وأمجـــادهم الســـابقة .

هذه هى القصيدة الوحيدة التى أثبتها الزبـــيرى فـــى ديوانـــه ، وأمـــا بقية قصائد المدح فقد سماها "الوثنيـــات" وحذفـــها مـــن ديوانـــه ، وهـــو الذى يقول عن قصيدة من تلك القصـــائد "وليـــس البـــاعث علـــى إثبـــات هذه القصيدة فى هـــذه المجموعـــة مجـــرد الحـــرص علـــى اســـتكمالها ، فقد كان يمكن إهداءها كغيرها من القصـــائد الوثنيـــة التـــى قلناهـــا فـــى

---

[1] الديوان ص ٩٠.

دور الطفولــة الوطنيــة "[١] ولكــن حذفــها مــن الديــوان لــم يمنـــع المؤرخين من إثبات تلك القصائد التـــى ذاعــت وشــاعت وقتــها ومنــها هذه القصيدة التى أثبتها عبــد الرحمــن عمــران فــى كتابــه " الزبــيرى أديب اليمن الثائر" والتى نقلها عــن مخطــوط حصــل عليــه مــن أحمــد الشامى . وقد قدم لهذه القصيدة بقوله " ولندخل إلــى مقــام ولــى العــهد الأدبى بتعز فنجد هنا منافسة ومعركة مفاخرة بيــن النــثر الــذى يحمــل لواءه الأستاذ أحمد نعمان ، وبين الشعر الذى يتقلــد إمارتــه فــى مقــام تعز[٢] شاعرنا الزبيرى . ويفرح الشاب الزبــيرى بإعطائــه لقــب أمــير شعراء اليمن من قبل ولى العهد ، وينشــئ قصيــدة طويلــة مكونــة مــن خمسة وستين بيتــا ...

ولندخل مع بعض أبيــات هــذه القصيــدة حيــث نجــده فــى البدايــة يستهلها بقولــه :-

أجنة يا قريض أنت أم نار	*	ففيك من صفة الأمــرين آثـــار
إذا تأوهت ذاب الصخر محترقا	*	وإن صدحت جرت فى الصخر أنهار
كم مهجة بت فى الأحشاء تؤنسها	*	كما يؤنس جارا فى الهوى جـــار
هل أنت نهر بطيئ القلب مستتر	*	أم أنت بحر وراء الكون زخـــار
وهل هبطت من المريخ تسمعنا	*	رموز قوم بذاك النجم قد حـــاروا

ثم يلتفت إلى أسرة الإمام يحي وعلى رأسهم ولى العهد أحمد الناصر فيقول:-

---

[١] الديوان ص ١٨٢.

[٢] تعز :المدن اليمنية مثل صنعاء وعدن ، وكانت عاصمة الدولة فى عهد الإمام أحمد ، والذى يذهب من صنعاء يمر " بذمار " ، و" إب " حتى يصل إلى "تعز".

يا آل يحي سلام من رياض نهى * ينهل مسكا عليكم منه مــــدرار

كم كابد الناس من ليل أناخ بهم * كأنما ضاع أصباح وأسفـــــار

حتى طلعتم وما فى قطرنا أحد * يشك أنكم فى القطر أقمـــــار

وأنكم من ضلال الغرب معتصم * وأنكم لقصود المجد عمـــــار

وجئت يا ناصر الإسلام تبعثه * كأنما أنت للإسلام تكرار

بعثت شعبا دفينا كان منطبقا * عليه ترب وأشواك وأحجار

يرى بوجهك أمالا تسجلها * لنا شهور وأعوام وأعمار

ثم يلتفت إلى زميله أمير النثر أحمــد نعمــان فــى المعركــة الأدبيــة بمقام ولى العهد فيقــول :-

نعمان أنت خطيب الشعب قد رضيت * له قلوب وأسماع وأبصـــــار

فأقنع بما قد حباك الله من شرف * اولا فإنك بعد اليوم منهــــــار

والصلح خير وما فى الحرب من ظفر * للظافرين إذا هم فى الوغى جاروا

فلا تهيج مقولى يوما لمعركة * فحسبك اليوم تحذير وإنـــــذار

ثم يلتفت إلى ولى العهد يشكره على منحه لقب شاعر اليمن فيقول

مولاى قد راعنى مما سمحت به * معنى من المجد فى التاريخ سيار

قلدتنى منصبا ضخما يسجل لى * إنى على الشعر نهاء وأمّـــــار

أكاد من لقبى يوما أطير به * لو أن قوماً على ألقابهم طــاروا

ولو شكرتك ملئ الشعر لم يك لى * شكر ولكنه بالعجز إقـــــرار

ثم يتحدث الزبيرى عن شعره ودوره :-

سيعرف الناس أنى كنت شاعرهم * حقا وأنك فى التقدير معيار

إنى لأعرف معنى الشعر معرفة * فيها كنوز خفيات وأسرار

وبعد فالشعر إلهام يفيض به * لب كما انهلت فى الأرض أمطار

وما لنا فيه من صنع ولا أثر * إلا كما طأطأت للريح أشجار

على أن أخلب الألباب محتكما * كما تحكم فى الأعناق بتار

وأن أقيم لك الدنيا وأقعدها * حتى يكون كما تهوى وتختار

وأن أصوغ لهذا الشعر أجنحة * من القوافى عليها العرش طيار

وأجمع الشعب حول التاج متحدا * يعوده لك إعظام وإكبار

وأدفع اليمن العظمى لعزتها * حتى يكون لها شأن و إخبار

فدع دعائم هذا الملك فى قلمى * فإنها كالرواسى ليس تنهار

أشدو فتصغى لى الدنيا فتهتف لى * كأننى ملك بالشعر حيار[1]

وهكذا نرى الزبيرى فى ظل قصر الإمامة فى "تعز" يحصل على لقب شاعر اليمن ، ولو شكر الإمام على هذا اللقب بملء شعره لكان عاجزا عن شكره ، وأنه سيقيم له الدنيا ويقعدها حتى تصبح الدنيا تحت الأمر له ، لقلمه ، فهو يشدو فتصغى له الدنيا فتهتف له . ولعله فى بيته هذا يتقمص شخصية المتنبى بجوار سيف الدولة عندما قال:-

وما الدهر إلا من رواة قصائدى * إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا[2]

---

(1) الزبيرى أديب اليمن الثائر عبدالرحمن العمرانى ص ١٧٨.

(2) ديوان المتنبى . شرح الشيخ ناصيف اليازجى المجلد الثانى ص١٨٤دار صادر بيروت

الفصل الثانى

الشاعرين للساسة والحكام مدح فى ميزان النقاد:-

• مدح حافظ للساسة والحكام :

اختلف النقاد والمؤرخون حول تلك القصائد التى قالها حافظ فى مدح الساسة والحكام والإنجليز وموقفه من دنشواى ، واستقباله "لكرومر" وتوديعه له واستقباله "لغورست" وتأبينه لملكة الإنجليز وتهنئته لمليكهم بتتويجه ملكا ، ما بين مؤيد لحافظ ، باحث له عن أى كلمة تلمح إلى الوطنية مدرجا إياه فى سلك الوطنين المخلصين ، وما بين معترف بسقطاته ملتمس له العذر ، وما بين قاس شديد عليه ، يجرده من الوطنية ويتهمه بالتخاذل والضعف.

[١] حافظ شاعر الوطنية بتلك القصائد :

يشير الأستاذ محمد فريد أبو حديد فى مقاله "مؤرخا العصر" إلى أن قصيدة حافظ فى دنشواى صورة بديعة تدل على النهضة الوطنية فى ذلك الوقت " وقد أبدع حافظ صورة لن يقدر الزمان على أن يقلل من روعتها ، وإن طال عليها مرّ الأيام ، وتلك صورة الفجيعة التى حلت بالبلاد فى حادث دنشواى ، ذلك الحادث الذى كان كالشعلة التى أوقدت حركة التحرر الوطنى ، وقد عبر حافظ عن ذلك الشعور أصدق تعبير وأقواه فى صورته الرائعة فى القصيدة التى مطلعها :

أيها القائمون بالأمر فينا * هل نسيتم ولاءنا والودادا

... لقد انطلق شعر حافظ ، منذ انطلق شعور عامة أهل مصر ، وفارقهم الفزع الأكبر من الاحتلال ، كان يستقبل العميد البريطانى بقصيدة يشكو فيها بنى الاحتلال ، ويودعه بأخرى فيشكو من الاحتلال ، ويستقبل العميد الجديد فيشكو من الاحتلال وأفصح فى ذلك إفصاحا لم يعهد فيه من قبل ... "[١]

هكذا بصورة عامة ودون تفصيل ودون وقوف أمام الالفاظ والمعانى ، ودون وقوف أمام بقية الأبيات وما قاله حافظ فيها .

وكذلك صنع عبد الرحمن الرافعى عندما كتب "شعراء الوطنية" واختار حافظ ضمن هؤلاء الشعراء الوطنيين ، فهو وطنى صميم ؛ وقصائده تمد الحركة الوطنية بالحماسة والصمود ، وقد توسع عبدالرحمن الرافعى فى مقياس الوطنية توسعا كبيرا ، وراح يسرد القصائد دون مناقشة لها ، ودون قراءة للحس الوطنى فيها ، يقول عن حافظ وقصائده " تتجلى الروح الوطنية ويتألق نورها فى شعر حافظ . ولقد وجدت الحركة الوطنية فى قصائده البديعة قوة تستمد منها الحماسة والصمود فى الجهاد والثورة على الاحتلال"[٢] وراح يسرد القصيدة تلو القصيدة دون الوقوف عندها ، ومن هذه القصائد ما كان سببا فى إدانته وتجرده من الوطنية ، ومع ذلك ساقها الرافعى دلالة على وطنيته ، مثل قصيدة حافظ فى دنشواى وقصيدته فى استقبال اللورد كرومر ، وقصيدته فى استقبال السير غورست

---

[١] مجلة الكتاب : أكتوبر سنة ١٩٤٧ ١٦٠٩.

[٢] شعراء الوطنية : عبد الرحمن الرافعى ص٩٧.

، وقصيدته فى رثاء مصطفى كامل – تلك التى نعته فيها بكل الصفـــات إلا الجهاد الوطنى :

فيا سائلى أين المروءة والوفا * وأين الحجا والرأى .؟ ويحك هاهيا

ويسوق قصيدة حافظ ، تلك التى نظمها عن أول مظاهرة للســـيدات احتجاجا على تعسف الإنجليز ، مغفلا ما دار حول هذه القصيدة مـــن غمـــز لحافظ ، فقد نسبت إلى غيره من الشعراء ، وظل صامتا . يقول زكى مبـارك وفى ثورة ١٩١٩ م تخاذل حافظ ولم ينطق بحرف "[١] ويقول مرة أخـــرى عن هذه القصيدة (إن قصيدته التى نظمها عن مظاهرة السيدات فـــى ســـنة ١٩١٩ لم تنشر إلا فى عام ١٩٢٩م ، ومعنى هذا أنها كتمت نحـــو عشـــر سنين . أتريدون الحق ... لقد نسبت تلك القصيدة فى ذلـــك الوقـــت إلـــى جماعة من الشعراء منهم الأستاذ محمد الهراوى ، ولم ير حافظ أن يصحـــح النسب لئلا يقال أو يقال "[٢] ومع ذلك فقد تغافل عبدالرحمن الرافعـــى عـــن ذلك كله وساق هذه القصائد دلالة على الوطنية.

• مدح حافظ نوع من المهادنة :

لقد التمس النقاد لحافظ العذر فى كثير من قصائده التى مدح بها الإنجلـــيز ، حتى خوفه من بطشهم وهو عذر أقبح من ذنب – كما يقولون – فإذا خاف الوطنى وسكت ، فأى ميزة له على غير الوطنى وأى فضل ؟

يقول حافظ :

---

[١] حافظ إبراهيم : زكى مبارك ص٦٠.

[٢] حافظ إبراهيم : زكى مبارك ص٦٢.

إذا نطقت فقاع السجن متكأ * وإن سكت فإن النفس لم تطب[1]

بل إن زكى مبارك قد ساق كلاما على لسان حافظ ينفى عنه الوطنية تماما وذلك فى قوله "(.. فأدار حافظ بصرة إلىّ وقال : ماذا تريدون منى ؟؟ قلت : نريد قصائد وطنية . قال : والاعتقال ؟؟ . قلت : وما خطر الاعتقال ؟ فأجاب فى هدوء : لن أجد فى المعتقل هذا السيجار (وكان فى يده سيجار) فقلت : لن تكون شاعر مصر الوطنى وأنت أسير هذا السيجار البغيض ...)[2]

هل معنى ذلك أن حافظ كان يفر من شعر الوطنية ، وكان يتخاذل عن الدفاع عن وطنه ، خوفا أن يسجن ويحرم من السيجار ؟ ما أقساه من معنى .

يتحدث طه حسين فى حديث الأربعاء عن حافظ فيشير إلى قصائده فى وداع كرومر وتهنئته للسلطان عبد الحميد بأنها نوع من المهادنة تحت تأثير البيئة المتناقضة ، وضغط الظروف العاتية المنوعة ، ويتجلى تهادنه فى مثل قصائده " وداع كرومر" وإلى " معتمد بريطانيا " وتهنئته للسلطان عبدالحميد "[3] وطه حسين يلتمس له العذر ، بسبب الظروف والبيئة المتنلقضة ، ويعتبر مدحه للحكام الإنجليز من أسلوب المهادنة .

وقصائد حافظ محيرة عند الدكتور أحمد الحوفى ، فإذا كان شوقى قد صمت عاما كاملا ، وحيرنا بصمته ، فإن حافظ إبراهيم قد نطق لكنه حيرنا بنطقه ، ذلك بأن حافظ نطق فى غير ثوران عنيف كما كان متوقعا منه ، فهو فى قصيدته التى نشرها فى ٢ يونيه سنة ١٩٠٦م، بعد الحكم بخمسة

---

[1] ديوان حافظ ص٤٢٣

[2] حافظ إبراهيم : زكى مبارك ص٦١.

[3] حديث الأدباء : طه حسين ص ٢٢٥.

أيام يعاتب ويتهكم ، فى مقام لا يليق فيه إلا الرجم تمل فى مقام لا يليق بـــه إلا الرجم بالنار فنحن فى حيرة من حافظ أيضاً ، لأن قصيدتيه الأوليين فـــى دنشواى، وهما اللتان قالهما فى زمن الحادث وبعده بقليل ، ليســـت فيــها العاطفة الهائجة المغضوب ، وليس بهما قنـــابل مصوبـــة إلـــى الاحتـــلال البريطانى لتدكّه " [١] .

ويناقش قصيدته فى وداع اللورد كرومر بعد أن عـــرض لـــها ، ثـــم يعقب بعد ذلك بقوله " وبعد أن يعرض حافظ الرأيين ، يحجم أن يبدى رأيـــه الخاص . أفكان مرد ذلك إلى جبن ، أم إلى مجاملة ، أم إلى شـــئ أخـــر ؟ لست أدرى . ولقد يفترض أن مرد ذلك إلى الإنصـــاف ، وأن هـــذا الأمـــر الافتراضى ليسئ إلى حافظ ، لأن المقام ليس مقام نصفه ووزن للحســـنات والسيئات ، وإنما هو مقام رد على أجنبى طاغية ، قضى بمصر ربع يسيطر على شؤونها ، ويجتلب خيراتها ، ويسيئ إلى أهلها ، وإن أحسن فى بعـض أعماله وإحساناً يتوخى به خير مصر ، وإنما كان يتوخى به الحصول علـــى المال للدائنين الأجانب ، ثم هو فى تقاريره ، وفى خطبته ، لـــم يـــداع أدب المجاملة ، ولا حرمة العقيدة الدينية ، ولم ينصف فى أحكامه الجائرة علـــى المصريين وطعن الوطنية المصرية والآمال المنوطة بها ، وأنذر باســـترقاق

---

[١] وطنية شوقى : د أحمد الحوفى ص ٢٢٥ .

دائم . فواجب الذى يرد عليه أن يفند دعاواه ، وأن يبرز له مساوئ حكمه، ويقرعه على تهجمه ، لا أن يذكر حسناته وسيئاته ، كأنه مؤرخ مؤرخ يتعمد الإنصاف فى حال لا مجال فيها للإنصاف " [١] .

وإذا كان الدكتور أحمد الحوفى قد ارتأى أن يكتفى بالحيرة فى حكمة على حافظ ، فإن الدكتور شوقى ضيف ، يصور الشاعر وهو ينطلق من خوفه من المحتل وفزعه من عدوانه وسجونه. يقول الدكتور شوقى ضيف، " وكان فى هذه السنوات الأربع لا يزال خائفاً يترقب المحتل وعدوانه وسجونه ، فأوحى إليه شيطانه أن يصانعه ، فرثى الملكة فيكتوريا حين ماتت فى عام سنة ١٩٠١م وهنأ خليفتها إدوارد السابع بتتويجه ، حتى لا يهيج حفيظة القوم عليه ، وحتى يأمن شرهم وكيدهم وما كانوا يمكرون "[٢] . وهو إذن ينطلق من الخوف والفزع من الإنجليز فراح يصانعهم ويتملقهم.

ولكن عمر الدسوقى يقرأ القصيدة لحافظ ، ويذكر ماله وما عليه ، فحافظ فى قصيدة دنشواى قد ابتدأ يجهر بمعاداته للإنجليز " كمن يتحسس طريقا لم يألفه ، تراه حذر تارة ، قويا تارة أخرى ، معاتباً فى لطف أحياناً ، متهكماً أحياناً كان من المنتظر والعاصفة على أشدها ودماء القتلى .

---

[١] وطنية شوقى : د . أحمد الحوفى ص ٢٣٤ .

[٢] فصول فى الشعر ونقده ص ٣٥٣.

ا الجو برائحتها ، وصرخات المجلودين تصم فى مقام لا يليق بـــه إلا الرجم بالنار فنحن فى حيرة من حافظ أيضاً ، لأن قصيدتيه الأوليين فـى دنشواى، وهما اللتان قالهما فى زمن الحادث وبعده بقليل ، ليســت فيـها العاطفة الهائجة المغضوب ، وليس بهما قنـــابل مصوبـــة إلـى الاحتـلال البريطانى لتدكّه " [1] .

ويناقش قصيدته فى وداع اللورد كرومر بعد أن عـــرض لـــها ، ثـم يعقب بعد ذلك بقوله " وبعد أن يعرض حافظ الرأيين ، يحجم أن يبدى رأيـــه الخاص . أفكان مرد ذلك إلى جبن ، أم إلى مجاملة ، أم إلى شـــئ أخـر ؟ لست أدرى . ولقد يفترض أن مرد ذلك إلى الإنصـــاف ، وأن هـذا الأمـر الافتراضى ليسئ إلى حافظ ، لأن المقام ليس مقام نصفه ووزن للحســنات والسيئات ، وإنما هو مقام رد على أجنبى طاغية ، قضى بمصر ربع يسيطر على شؤونـها ، ويجتلب خيراتها ، ويسيئ إلى أهلها ، وإن أحسن فى بعـض أعماله وإحساناً يتوخى به خير مصر ، وإنما كان يتوخى به الحصول علـى المال للدائنين الأجانب ، ثم هو فى تقاريره ، وفى خطبته ، لـم يـداع أدب المجاملة ، ولا حرمة العقيدة الدينية ، ولم ينصف فى أحكامه الجائرة علـى المصريين وطعن الوطنية المصرية والآمال المنوطة بها ، وأنذر باسـترقاق

---

[1] وطنية شوقى : د أحمد الحوفى ص ٢٢٥ .

دائم . فواجب الذى يرد عليه أن يفند دعاواه ، وأن يبرز له مساوئ حكمه، ويقرعه على تهجمه ، لا أن يذكر حسناته وسيئاته ، كأنه مؤرخ مؤرخ يتعمد الإنصاف فى حال لا مجال فيها للإنصاف " [١] .

وإذا كان الدكتور أحمد الحوفى قد ارتأى أن يكتفى بالحيرة فى حكمة على حافظ ، فإن الدكتور شوقى ضيف ، يصور الشاعر وهو ينطلق من خوفه من المحتل وفزعه من عدوانه وسجونه. يقول الدكتور شوقى ضيف، " وكان فى هذه السنوات الأربع لا يزال خائفاً يترقب المحتل وعدوانه وسجونه ، فأوحى إليه شيطانه أن يصانعه ، فرثى الملكة فيكتوريا حين ماتت فى عام سنة ١٩٠١م وهنأ خليفتها إدوارد السابع بتتويجه ، حتى لا يهيج حفيظة القوم عليه ، وحتى يأمن شرهم وكيدهم وما كانوا يمكرون"[٢]. وهو إذن ينطلق من الخوف والفزع من الإنجليز فراح يصانعهم ويتملقهم.

ولكن عمر الدسوقى يقرأ القصيدة لحافظ ، ويذكر ماله وما عليه ، فحافظ فى قصيدة دنشواى قد ابتدأ يجهر بمعاداته للإنجليز " كمن يتحسس طريقا لم يألفه ، تراه حذر تارة ، قويا تارة أخرى ، معاتباً فى لطف أحياناً ، متهكماً أحياناً كان من المنتظر والعاصفة على أشدها ودماء القتلى .

---

[١] وطنية شوقى : د . أحمد الحوفى ص ٢٣٤ .

[٢] فصول فى الشعر ونقده ص ٣٥٣.

تملأ الجو برائحتها ، صرخات تصم الآذان ، أن تكون قصيدته ثـورة علـى الظلم والاستعباد والقسوة ، ولكنه كما ذكرنا كـان لا يـزال قريـب عـهد بموالاتهم . اسمعه يقول فى مطلعها:

أيها القائمون بالأمر فينا   هل نسيتم ولاءنا والودادا

فأى تخاذل تراه فى هذا البيت وأى ضعف ؟؟ وهل هذا موقف عتاب ومذاكرة الود ، ولم يبق هؤلاء ود يذكر ؟؟ . وقد يشفع له مـا أتـى فـى قصيدته بعد ذلك من سخرية لاذعة فى قوله:-

خفضوا جيشكم وناموا هنيئاً   وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا

وإذا أعوزتكم ذات طوق   بين تلك الربى فصيدوا العبادا

إنما نحن والحمام سواء   لم تغادر أطواقنا الأجيادا

ومن شدة وعنف فى قوله

ليت شعرى أتلك محكمة التفـ   ـتيش عادت أم عهد نيرون عادَا

كيف يحلو من القوى التشفى   من ضعيف ألقى إليه القيادا

ومن قسوة وسخرية لاذعة بمصر وأهلها لأنها أمة ضعيفة مسـتخذية لا تجيد إلا الكلام والتحسر والبكاء:-

أمة النيل أكبرت أن تعادى	من رماها وأشفقت أن تعادى
ليس فيها إلا كلام وإلا	حسرة بعد حسرة تتهادى[1]

ويتناول عمر الدسوقى قصيدة أخرى لحافظ إبراهيم وهـــى اســـتقباله (السير مكماهون) فيقول " وثمة قصيدة أخرى تنم عن ذلك التغيير فى شـــعر حافظ السياسى ، وخضوعه التام لأسر الوظيفة ، وإقراره بالأمر الواقع مـــن سلطان الإنجليز بمصر وبطشهم ، تلك هى التى قالها عنـــد تعييـــن الســـر مكماهون عميد ا لانجلترا بمصر سنة ١٩١٥ م ومنها يقول معترفـــا بأنـــه صاحب الأمر المطلق ، ومن بيده الحل والعقد فى البلاد :-

ودع العهود فإنها	فيما مضى كانت رواية
أضحت ربوع النيل سل	طنة وقد كانت ولاية
فتعهدوها بالصلا	ح وأحسنوا فيها الوصاية
أنتم أطباء الشعو	ب وأنبل الأقوام غاية
أنى حللتم فى البلا	د لكم من الإصلاح غاية

(١)فى الأدب الحديث : عمر الدسوقى جـ٢ ص ١٠٨.

فهذه النغمة التى يمجد فيه الإنجليز ، ويشيد بعد لهم ومقدرتهم على الإصلاح ، ويطلب منهم أن يهتموا بشئون التعليم فى مصر ، ويتعهدوا البلاد بالرعاية ، ويقول لهم إنهم أنبل الشعوب وأعدلهم ، تشعرنا بأن حافظا نسى أن مصر محتله [1] .

ويتناول عمر الدسوقى قصائد حافظ بعد الوظيفة " ...... وبذلك كبلَ حافظ بقيود الوظيفة والألقاب ، وضن بمنصبه كل الضن ، وخشى عليه كل الخشيه ، وصار لا يقول شعراً يغضب به أحدا من ذوى السلطان ، خشية أن يزحزحوه عنه ، أو ينالوه بأذى فيه ، وإن قال شعرا أخفاه ولم ينسبه إلى نفسه ، وليته سكت بعد أن دخل قضى الوظيفة ولكنه أخذ يدعوا إلى التعاون مع الإنجليز ، من مثل قوله عقب إعلان الحماية وتولية السلطان حسين كامل العرش مصر مهنئا له وناصحا بأن يتبع أراءهم وينصاع لأوامرهم:

وو ال القوم إنهم كرام *** ميامين النقيبة أين حلوا

لهم ملك على التاميز أضحت *** ذراه على المعالى تستهل

وليس كقومهم فى الغرب قوم *** من الأخلاق قد نهلوا وعلوا

فإن صادقتهم صدقوك ودا *** وليس لهم إذا فتشب مثل

---

(١) فى الأددب الحديث : عمر الدسوقى حـ ٢ ص ١١٤.

وإن شاورتهم والأمر جد *** ظفرت لهم برأى لا يزل

وإن ناديتهم لبال منهم *** بنا فقيا دنا للخير سهل

وهى قصيدة لعمرى بدل على أن صاحب ذلك الشعر ليس هو حافظ الملتهب الجبار الذى كان يصيب شأبيب سخطه على الإنجليز ويريد أن يطردهم من مصر ، وإلا فما باله ينصح السلطان بأن يماددهم حبل الود ...... " [1] .

ونلاحظ هنا أن عمر الدسوقى قد وقف عند كل قصيدة على حدة ، وحكم عليها طبقاً للظروف التى كان يعيشها حافظ وظروف البلد وخضوعه للمستعمر .

وأما ذكى مبارك فإنه يرى أن شعر حافظ صورة صحيحة لزمانه " وهو زمان جمع بين الغرائب فى الأفهام والأذواق ، وأن مداراة حافظ للاحتلال لون من السياسة الوقتية ، أما ضمير حافظ فهو ضمير الوطن الصادق ، ضمير الشاعر الذى يدرك فى سريرة نفسه ما يدرك سائر الناس"[2] فمداره حافظ للاحتلال لون من السياسة الوقتية .

---

[1] فى الأدب الحديث :عمر الدسوقى حـ ١١٣.

[2] حافظ إبراهيم : زكى مبارك ص ١١.

من السياسة الوقتية . وعند زكى مبارك لكل أوان لونه بالنسبة للوطنية ، فما تعده اليوم كفرا بالوطنية ، قد يكون وطنية صادقة فى وقت ما ، يقول : " كان يشارك الجمهور المصرى فى مقاومة الاحتلال بعبارات هى الغاية فى صدق الوطنية ولكنه كان يقول كلاما نعده اليوم من الكفر بالوطنية ، فقد كان يطالب بإصلاح البلاد ويدعوهم إلى التحرر فى اختيار الوزراء . أليس هو الذى يقول فى مخاطبة السير غورست:-

إذا ما شئت فاستوزر علينا ... فتى كالفضل أو كابن العميد

ولا تثقل خطاه بمستشار ... يحيد به عن القصد الحميد

ومع ذلك فلم يستطع زكى مبارك أن يساير حافظ على طول الخط ، أو يدافع عنه حتى آخر بيت من شعره ، ولكنه وجد نفسه يقول فى قصيدة حافظ الذى استقبل بها غورست "لن يغفر لحافظ أنه استنصر بغورست فقال:-

تدارك أمه بالشرق أمست ... على الأيام عاثرة الجدود

وأيدّ مصر والسودان وأغنم ... ثناء القوم من بيض وسود

فهذا كلام لا نقوله اليوم ، ولن نقوله بعد اليوم لأنه لا يقام له ميزان [١]

والدكتور زكى مبارك يرى أن حافظا ابن بيئته وابن ظروفـــه ، ومـــا نعتبره اليوم كفرا بالوطنية ، قد يكون مقبولاً فى زمان حافظ . ولكنـــه لـــم يستطع أن يوافقه على قصيدته فى استقبال السر غورست.

– وينقد الصيرفى حافظاً شديد النقد على دعوتـــه للســـلطان حســـين كامل بالتعاون مع الإنجليز " كان جديراً بحـــافظ أن يكـــون أكـــثر وطنيـــة وشعورا بالإباء أو يسكت إن لم يجد مجالاً للقول [٢] .

ويعلق السحرتى على نقد الصيرفى بقوله : وهذه نقدات فيـــها كثـــير من الظلم ، لأنها تنظر نظرة هذا الجيل لجيل مضى ، وعصر رهيب أســـود كان يجثم فيه الاحتلال بمخالبه على صدر البلاد وقلبها. ويكفى حافظ فخـــر أنه استطاع فى هذا الظلام أن يتحدث بذكر مصر ، وأن ينطق بأمانيـــها " [٣] وواضح أن السحرتى يقول بما قاله زكى مبارك أن ما تعده كفرا بالوطنيـــة اليوم ، ربما كان يعد من الوطنية فى زمن الاستعمار وبطشه.

---

[١] زكى مبارك ونقد الشعر : إعداد كريمة زكى مبارك ص ٨٣.
[٢] حافظ وشوقى : الصيرفى ص ٨.
[٣] الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث. السحرتى ص ١٩٥.

ويشير الدكتور شكرى عياد إلى أن حافظ قد لجأ إلى أسلوب للتهكم وهو قناع وضعه الشاعر على وجهه الغاضب الثائر ، لتصل رسالته فى أقوى صورة إلى قرائه وسامعيه ، ويطبق ذلك على قصيدته فى دنشواى فيقول " ربما كانت حادثة دنشواى هى التى قدحت الشرارة فى نفس حافظ بكل ما كانت مهيأة له ذاتياً وفنياً ، فابتدع هذا الأسلوب الذى لم يستطع واحد من معاصريه أن يجاريه فيه.

فداليته فى حادثة دنشواى بداية رائعة له ، تلتها قصيدته فى استقبال اللورد كرومر عند عودته من مصيفه بعد الحادثة ببضعة أشهر ، ثم قصيدته فى استقبال السير غورست:

أذ يقونا الرجاء فقد ظمئنا	بعهد المصلحين إلى الورود
ومنوا بالوجود فقد جهلنا	بفضل وجودكم معنى الوجود
إذا اعلو لى الصياح فلا تلمنا	فإن الناس فى جهد جهيد
على قدر الأذى والظلم يعلو	صياح المشفقين من المزيد
جراح فى النفوس نغرن نغرا	وكنّ قد اندملن على صديد

إذا ما هاجهن أسى جديد هتكن سرائر القلب الجليد [1]

فالأبيات الثلاثة الأولى قد بنيت كلها علـــى أفعـــال طلبيـــة ، تظـــهر المصريين فى صورة الضعف المتناهى ، فهى يطلبون من أعدائـــهم مجـــرد إعطائهم شيئاً من الرجاء ، أو التكرم عليهم بمجرد " الوجود ". وفى البيـــت الثالث ينحصر الطلب فى عدم مؤاخذة المصريين إذا ارتفع صياحـــهم مـــن الألم . والأبيات الثلاثة التالية مؤلفة من جمل خبرية تصـــف كيـــف وصـــل المصريون إلى هذه الحالة. فقد استمر الأذى والظلم بـــلا تـــراخ ، فصيـــاح الصائحين لا ينبعث عن ألم من أذى واقع ، بل عن إشفاق مـــن أذى جديـــد أشد ، ويشبه الشاعر تكرار الإساءة بجرح امتلأ قيحا ، فكلما هيجة حـــادث جديد تضاعفت سورة الألم.

فالوصف والتشبيه والرجاء كلها متعلقة بجماعة المصرييـــن . وفـــى مقابل ذلك لا يذكر الإنجليز إلا بضمير المخاطبين وكناية واحدة جاءت علـــى أسلوب التهكم البلاغى المعروف " المصلحين " . لذلك يمكن أن يفـــهم هـــذا القسم من القصيدة على أنه استعطاف محض وتذلل لمستعمر لا يرعـــوى . ولكن المبالغة فى إظهار الضعف ، والمطالبة بأيســـر حقـــوق الإنســـان –

---

[1] ديوان حافظ ٣٤٦.

الوجود والمقترن بالأمل – يصوران الفريقين جميعا وقد تجردا من إنسانيتهما: هذا لفرط تواضعه ، وهذا الفرط تطاوله . وهو معنى تردد كثيرا فى شعر حافظ على اختلاف موضوعاته ، وصرح به فى شعره السياسى خين قال مخاطبا الإنجليز: –

لا تذكروا الأخلاق بعد حيادكم	فمصابكم ومصابنا سيان
حاربتما خلاقكم لتحاربوا	أخلاقنا فتألم الشعبان [1]

ثم إن هذه القصيدة [2] نفسها تنتقل بين مواقف متعددة مختلفة فى الظاهر تئول كلها إلى الانتظام فى أسلوب التهكم الذى نحن بصدده ، لأنك يجب أن تتجاوز المعنى المباشر كما تجاوزنا فى الأبيات السابقة – إذا أردت أن تعتبر القصيدة كلا متلائم الأجزاء ، وهذا فرض يجب ألا تستكثره على حافظ ، لا لأنه شاعر عظيم فعلك لا تعده كذلك ، بل لأنه ما يفعله الرجل من عامة المصريين حين يعمد إلى أسلوب التهكم فى حديثه " [3]

---

[1] ديوان حافظ ص ٤٢١ . وهى مقطوعة من بيتن تحت عنوان " الأخلاق والحياد " ونشرت فى أبريل سنة ١٩٣٢م.

[2] هى ليست قصيدة ، وإنما مقطوعة من بيتين ص ٤٢١.

[3] مجلة فصول : المجلد الثالث : العدد الثانى مارس سنه ١٩٨٣ ص ٢٧.

والدكتور شكرى عياد يتعرض فى نقده لأسلوب حافظ ، أو يـــدرس قصـــائد أسلوبية ، ليخرج من هذه الدراسة بأن مدح الأنجليز ليس مرحا ، وإنما هـو تهكم ، هو ابراز للعالم كله مدى ضعــف هــذه الأمـــة ، ومـــدى غطرســـة الأستعمار .

حافظ ضعيف الهمة ، مذعور القلب :-

ومن الذين حملوا على حافظ حملة شعراء ، وجردوه مـــن الوطنيـــة بسبب مدحه للإنجليز وللحكام ، ولم ، يلتمسوا له عذرا ، ولم يفسروا مدحه على أنه مهادنة أو تهكم أو ما شابه ذلك ، وساق هذا فى مقال لـــه تحـت عنوان " أوطان " وقد رسم صورة للبلاد فى ذلك الوقت ، وما كـــان يفعلــه المستعمر الغاشم بها ، ورسم صورة سريعة لما فعلــه البـــارودى بالشـــعر وتوظيفه للجهاد ضد المستعمر ، وما خطه مصطفى كامل من رسم طريـــق للجهاد " فانتبه هذان الشابان وتسمعا فإذا صيحات أخر تدوى فـــى نواحـــى الأرض العربية والأرض الإسلامية كلها داعية إلى التحـــرر مـــن ضـــراوة الاستعمار الأوربى ومن البطش التركى ، ومن الجهل المستبد الجاثم علـــى هذه الشعوب ، ومن الخوف الذى يقبض الهمم ويغل النفـــوس ، وإذن فقـــد نشأ هذان الشاعران فى زمن كل ما فيه يدعو الشاعر إلـــى أداء الفـــرض

الأول على أبناء الوطن وهو الجهاد ، فماذا كان من أمرهما " [1].

وواضح أن الشيخ محمود شاكر أو الشاب محمود شاكر في ذلك الوقت ، قد رسم صورة للوطنية في مصر ليحاكم على أساسها شوقي وحافظ ولكنه أغفل جانبا آخر وهو ما فعله الإنجليز بالبارودي وبالوطنيين في ذلك الوقت ، وهو ما كان يخشاه حافظ ، وما ألجأه إلى المهادنة أحيانا ، وإلى مدحهم خوف البطش.

على أية حال فقد رسم الشيخ محمود شاكر صورة لحافظ وصفه فيها بضعف الهمة فقال : أما حافظ فما أظنه فعل شيئا ولا كان في طوقه أن يفعل شيئا ، ولذلك قصر شعره على المناسبات يقول فيها ، وكان قليل المحصول من تاريخ هذه الدنيا ، فاتر النفس في عالم مضطرب ، مستغرقا في همم صغار لا تنزع به إلى ثورة ولا إلى تحريض على ثورة وكان إلى آخر حياته حريصا على أن يكون مكفي الرزق ، فإنه – رحمه الله – قد لقي عنتا شديدا من ضيق ذات يده في نشأته وفي صباه وفي أكثر شبابه ، ولكنه لم يخل شعره أحيانا قليلة من إحساس وطني يدفع الشاعر أن يقول شعرا فيه نفحة من الوطنية . ولكنه شعر على غير نهج وإلى غير هدف .

---

[1] مجلة الكتاب : اكتوبر سنه ١٩٤٧ ، ١٥٦٨.

بل كان إذا جاءه القول قال. واستقر فى نفسه أن ذلك حسبه من الشعر الوطنى فيما يظن ويتوهم.

وكان فى حافظ عيب آخر ضلله وزاغ به عن طريق الحق ووقع به دون الاهتداء إلى النهج الذى يكون به الشاعر صاحب شعر وطنى أو قومى ، فقد كان إنساناً مذعور القلب فى غير ذعر، قليل الحمل للمشقة وتكاليفها ، كثير الشكوى والتبرم من أهون الشىء ، فكان إذا جاءه شعر فيه شىءٌ يخشى أن يؤخذ عليه ، آثر السلامة فطواه وأبى أن ينشره ، كما روى ذلك أكثر الذين عاصروه وصاحبوه ، ولما نشر هذا الشعر بعد وفاته كان أفرغ من أن يخافه إنسان من عامة الناس فضلاً عن شاعر من خاصة المجاهدين ، ثم إن هذا الذعر فى غير ذعر كان يحمله على اختيار مناسبات يقول فيها شعراً تبرأ الوطنية منه ، ولا يقوله إلا شاعر متكسب أو خائف أو مقتول إن سكت . وبهذه الإدانة يحاكم الشيخ محمود شاكر حافظاً فى مدحه لملكة بريطانيا ، التى كان زمنها بلاء مصبوبا على بلاده فإذا هو يرثيها ويعزى قومها الذين غزوا بلاده وساموها الخسف ، وأى خسف ؟ وكذلك يحاكمه على قصيدته فى تهنئة الملك إدوارد بتتويجه.

ويحاكمه كذلك على قصيدته فى دنشواى ، وهو بمصر لحيثيات هذه

المحاكمة فيتحدث عن دنشواى وما حدث فيها من أهوال فيقول " ثـم نـدع شيئاً كثيراً من أمثال هذا وننظر فإذا يوم مشئوم آخر فى تاريخ مصر يفجـع الشعب المصرى كله وتتسامع الدنيا وتقشعر لـه الأبـدان ، حتـى أبـدان الإنجليز أنفسهم لشناعته وشفاعة آثاره ، هو يوم دنشواى الذى لم يشـهد العالم يوما أفظع منه وحشية ولا اعتداء علـى الإنسـانية ، وكـانت هـذه الحادثة خليقة أن تنشئ رجلا لم يقل الشعر قط ، فيكون شاعرا يملأ رحـاب الدنيا تفجعاً ونداء وتحريضاً على تقويض دعائم البغى والطغيان ، أمـا إذا كان الرجل شاعرا وطنياً ، فكانت حقيقة بأن تبعثه بعثـاً جديـداً ، فيجـرد شعره للحرية والجهاد والمصابرة على البأساء والضراء ، حتى يوقظ نيـام قومه من غفلاتهم ، وينفض المخاوف عـن قلوبـهم ، ويُجيّـش همـمهم للصراع الذى لا تنطفئ له جمرة ، أو تنطفئ جذوه الحياة فى أبدانهم . ولقد وقعت هذه الكارثة فى ١٣ يونيه سنة ١٩٠٦م وحافظ يومئذ فى الخامسـة والثلاثين من عمره أى فى فورة الشباب والعزم والقـوة، ودوى مصطفـى كامل كأنه الرعود القاصفة فى السحاب العراض فى اليلة المظلمة ، فمـاذا كان من أمر هذا الفتى الشاعر الوطنى[١]

---

[١] مجلة الكتاب : أكتوبر سنه ١٩٤٧ ص ١٥٧.

أقول إن الشيخ محمود شاكر يرسم صورة مثلى للشاعر البطل ، متناسيا ظروف الشاعر ، وإمكاناته ، ومغفلا طغيان الاستعمار وقهره للحريات وتكميمه للأفواه ، ومع ذلك فقد حاكم الشيخ شاكر حافظا على قصيدته فى دنشواى من خلال هذه الصورة المثلى التى رسمها للشاعر الوطنى فقال :- إنه استفتح قصيدته بهذه الكلمات الرقيقة ، وبهذه السخرية اللطيفة :-

أيها القائمون بالأمر فينا هل نسيتم ولاءنا والودادا ثم لا تنسى أنه يخاطب الإنجليز ويذكر لهم ولاء مصر ووددادها ... ثم يطلب من الطغاة إحسان القتل إذا ضنوا بالعفو ، وأنه لا يليق بالقوى أن يتشفى من ضعيف أسلم إليه قياده . ثم يقول:-

إن عشرين حجة بعد خمس   علمتنا السكون مهما تمادى

إلى آخر ما قاله فى هذه القصيدة ، وهو كلام لا غناء فيه ، ولا يمكن أن يعد فى جيد الشعر الوطنى فإن فيه من المغامز ما لا يقوم له شيء من عذر أو سواه.[1] فالشيخ محمود شاكر لا يجد عذرا فى قصيدة دنشواى لحافظ ، وهى غمز صريح فى وطنيته ، وياليته سكت عند ذلك ، ولكنه

[1] مجلة الكتاب : أكتوبر سنة ١٩٤٧ ص ١٥٧١.

استقبل اللورد كرومر الذى كان غائبا وقت الحادثـــة بقصيـــدة يقـــول فـــى مطلعها إنه لا يريد شيئا أكثر من أن يعاتب اللورد ويقول له " علمتنا معنـــى الحياة " ثم يفيض فى كلام ســـهل رقيـــق يذكـــر فيـــه ولاء المصرييـــن لله للبريطانين إنها نصائح غالية يهديها هذا الفتى الشاعر الوطنى إلى الغـــازى المتغطرس الذى لم تسلم من شروره زاوية فى أرض مصـــر لكـــى يكســـب قلوب المصريين وينال مودتهم وإخلاصهم له ولبريطانيا ، فما أعجب ومـــا أغرب [١] وقد لجأ حافظ الى تبكيت المصريين فى هذه القصيدة وهو اسلوب يعده كثير من النقاد ، فيه إيقاظ للهمم ، وتقريع للخاملين الكسالى ، ولكـــن الشيخ شاكر يصوره على أنه عادة مذمومة تأصلت فى حافظ . وقد تنـــاول قول حافظ وإذا سئلت عن الكنانة قل لهم زهى أمة تلهو وشعب يلعب.

ثم يعلق عليه بقوله " لم تكن لحافظ مندوحة عن أن يقول هذا القـــول ، فإنها عادة سيئة من عاداته لم يزل يرددها فى شعره ما استطاع ، كأنـــه ترك هجاء الناس ووكل بهجاء هذه الأمة ، لتكون كلمته عونا للغزاة حيـــن تذيع وتثبت وتجرى بها ألسنه الجهال والمنافقين وشذاذ الآفاق الذين نزلـــوا مصر مع الاحتلال البريطانى ، وقد كان ذلك [٢] .

---

[١] المرجع السابق ص ١٥٧١.

[٢] مجلة الكتاب : أكتوبر سنة ١٩٤٧ ص ١٥٧٢.

وليست هذه هى المرة الوحيدة ولكنه أكثر من هذه العادة فى شـعره ، وهو قد قال قبل دنشواى فى سنه ١٩٠٤.

فما أنت يا مصر دار الأريب * ولا أنت بالبلد الطيب

يقولون فى النشئ خير لنا * وللنشئ شر من الأجنبى

وكما ذا بمصر من المضحكات * كما قال فيها أبو الطيب

وشعب يفر من الصالحات * فرار السليم من الأجرب

ويعلق الشيخ شاكر على هذه الأبيات مغيظا محنقا يصب جام غضبـه على حافظ واتهامه للشعب المصرى على أنه يفر من الصالحات وذلك فـى قوله : " أيجوز لى أن أعلق على هذا الشعر بشىء إلا أن أقول إن حافظـا نفسه كان أشد على مصر من هذا النشء الذى ذمه ، وأنه ابن هذا الشـعب الذى يفر من الصالحات ؛ ولست أدرى كيف انتصف من هذا الرجل، فإن كل

كثير فى أمره قليل ، وهو بهذا الكلام وأمثاله قد نفى عن نفسه خيراً كـــان هو أحوج الناس إليه فى حياته وبعد مماته" (١)

---

(١) مجلة الكتاب : أكتوبر سنه ١٩٤٧ م ص ١٥٧٢ . وأنا لا أوفق الشيخ محمود شـــاكر على انتزاع هذه الأبيات من القصيدة ، وانتزاعها من سياقها والظروف التى قيلت فيـــها ، والزج بها فى موضوع الوطنية ، بما يوهمنا أن حافظ يصب لعنات على بلاده ويتهمـــها بالفرار من الصالحات ، لأن هذه الأبيات وردت فى سياق آخر ، وموضوعها هـــو زواج الشيخ على يوسف من السيدة صفية بنت السيد أحمد عبد الخالق الســـادات شـــيخ الســـادة الوفائية وطلب الأب فسخ العقد لعدم الكفاءة فى النسب ، وقضت المحكمة بفسخ الـــزواج ، وكان لهذه القضية ثورة فى الرأى العام ، وفاضت الصحف وفاض الشـــعراء ، وفـــاض حافظ عائباً على الشباب لهوهم ولعبهم وذلك فى البيت الذى حذفه الشيخ شاكر عامدا لأنـــه يوضح حرص حافظ على الأخلاق

والبيت أتى بعد قوله : يقولون فى النشئ خير لنا   وللنشء شر من الأجنبى =

أفى (الأزبكية) مثوى البنين   وبين المساجد مثوى الأب؟

هكذا يوضح سبب فساد الشباب فهم يلهون فى الملاهى والآباء فى المساجد.

وكذلك البيت الذى حذفه بعد قوله : (وكم ذا بمصر من المضحكات : كما قال فيـــها أبـــو الطيب أمور تمُرّ وعيش يُمرّ   ونحن من اللهو فى ملعب

والبيت فيه دعوة إلى الجد ونبذ اللهو واللعب وقد ساقه بعد قولـــه " وشـــعب يفـــر مـــن الصالحات ، وصحف تطن طنين الذباب ، وهذا يلوذ بقصر الأمير ، وهذا يلـــوذ بقصـــر السفير وهذا يصيح مع الصائحين ... وهو نقد لما حدث فى موضوع الزواج. الديوان ص ٢٥٧.

*مـدح الزبـيرى للساسـة والحكـام مـن وجهـة نظـر النقـاد :-

إذا كان حافظ قد وجد من يدافـع عـن قصـائده فـى مـدح الساسة والحكام ، أو ينقدها ويوضـح مـا فيـها مـن تخـاذل ، أو ما فيها مـن تـهكم وسـخرية بالمسـتعمر ، فـإن الزبـيرى قـد استشعر هو نفسه ما فى هـذه القصـائد التـى مـدح بـها الأئمـة والحكام من تخاذل وضعف ، وراح يحـاكم نفسـه ، ويدافـع عـن نفسه ، وكان له تبريرات شـتى منـها :-

-هذه المدائح ، كانت مرحلة من المراحـل الثوريـة :-

فقد خاض الثـوار تجـارب عديـدة مـع الإمـام ، ومـدح الأئمة كان تجربة من هـذه التجـارب .

يقول الزبيرى " لقد كـانت التجربـة الأولـى هـى تجربـة الرعيل الأول من رفاقنا ، نبغ فريق منـهم مـن الأرض اليمنيـة ، عن طريق المطالعات والكتـب الحديثـة ، ووفـد آخـرون عـائدين من بغداد ، بعد أن أنهوا دراسـتهم العسـكرية ، كـانت تجربتـهم التبشير بأفكار عصرية بحتة ، ونقلـها إلـى شـعبهم كمـا هـى ، وهو شعب - كان - لم يعـرف أى شـئ عـن العصـر الحديـث . وكان لهذا الأسلوب رد فعـل شـعبى ورسـمى مضـاد ، وشـاعت عنهم حكاية الاختصـار للقـرآن كذبـاً وبـهتاناً ، ولكنـها شـاعت لأنهم لم يتخذوا الاحتياطـات ضـد قبـول مثـل هـذه الإشـاعات ، وكان كل هذا شـيئاً طبيعيـاً ، لأنـها التجـارب الأولـى ، وسـهل

على الحكم الرجعى أن يلغى وجودهــم بالسـجن ، وكــان الشــعب يطلب ما هو أكثر من الســجن " [١]

إذن فقد جرب الثوار من الشــباب طريقــة إطــلاع الشــعب على التقدم الحاصل خارج بلادهم وحاولوا إفاقتــهم مــن ثباتــهم ، فلفقت السلطات لهم تهمــة العبـث بـالدين ، واختصــار القــرآن ، وراح الرعيل الثــانى ومنــهم محمـد محمـود الزبـيرى يعملــون على نشر دعوتهم عن طريق الديــن ، وعندهــا رأوا أنفســهم فــى السجن أيضــاً .

وكانت التجربة الثالثة أكــثر لينــاً ، وهــى تجربــة مــدح الحكام والساســة . يقــول محمـد محمــود الزبــيرى " ورأينــا أن التاريخ سيحكم علينا بالتهور والتســرع ، إذا لــم تكــرر التجــارب بطرق أكــثر لينــاً . فالعــامل الإنســانى يجـب أن يراعــى حتــى بالنسبة إلى حكام يسيطرون على مقدرات الشــعب بغــير حــق .

والله سبحانه وتعــالى يقــول لموســى وهــارون عليــهما السلام وهو يبعثهما إلى فرعون " فقولا له قولاً لينـــاً لعلــه يتذكــر أو يخشى " ومن هنا نشــأت فكــرة التطــامن للعاصفــة ، بعــد أن وجدنا أنفسنا سجناء " جبل الأهنــوم " وظــهرت الثقــة بمقــدرة الشعر على إقناع الحكام بأننــا لســنا أعــداء ، بــل إننــا أبنــاءهم

---

[١] ديوان الزبــيرى ص ٩٨ .

البررة ... وقد نجح الشعر هنـا فـى إقناعـهم بأننـا لسـنا لـهم بالأعداء فأطلقوا سراح البعض بعد تسـعة أشـهر.[1]

وهذه التجربة لم يقـدر لـها النجـاح ، لأن الحكـام ظنـوا أن بإمكانهم أن يشتروا هـؤلاء الثـوار بـالمنصب والمـال ، وقـد وصل الثوار إلى قناعة بأنه لا تغيير لـهؤلاء الأحكـام إلا بـالقوة

-كانت هـذه المدائـح هـى المستكشـف لأغـوار نفـس الإمـلم :-

يوضح الزبيرى هذا فيقول " ولقد كـان شـعر المـدح فـى هـذه الفـترة البدائيـة هـو الرائـد والمستكشـف الأول ، وهـو المجس العميق الدقيق الـذى تغلغـل فـى أغـوار نفـس الإمـام ، وأعطانا المقاييس والمعايير لتقدير الحد البعيـد الـذى ذهـب إليـه الطاغية من التأله والقوة والاسـتعلاء والإصـرار ... وأنـا أذكـر أن قصيدتى فى استعطاف الإمام والشـكوى مـن أهـوال السـجن ، انتشرت فـى صفـوف الشـعب انتشـارا سـريعا قبـل أن تصـل النسخة المرسلة إلى الإمـام ، وأنـها أحدثـت أثـرا عاطفيـا فـى صـالح الأحـرار المعتقليـن ، وحسـنت نظـرة الشـعب إليـهم ، وهيأت الشعب لنقـد تصرفـات الإمـام ، ورغـم أنـه كـان فيـها استعطاف ومدح للإمام يحيى ، فقـد كـانت تنطـوى علـى وصـف

---

[1]ديوان الزبـيرى ص ٧٠ .

لآلام السجن ، قصدت بـــه تســجيل هــذه الحقيقــة تاريخيــا فـــى صورة ضراعة واســـترحام " [1]

-تقديـــم صــــورة رمزيـــة لبشــاعة العلاقــة بيـــن الحـــاكم والمحكـــوم :

وهو مبرر آخـــر مـــن مـــبررات المـــدح يســـوقه الزبـــيرى فهو قد تحـــدث عـــن آلام الســـجن بقصـــد تســـجيل هـــذه الحقيقـــة التاريخية ، وقد حاول بهذه المدائح تحســـين صـــورة الثـــوار عنـــد الشعب ، وقد بـــالغ فـــى المـــدح ليقـــدم للأجيـــال صـــورة رمزيـــة لبشاعة العلاقة بين الحـــاكم والمحكـــوم .

يقول الشاعر " ومـــن جهـــة أخـــرى فـــإن المبالغـــات فـــى المدح والشكوى والاستعطاف ، يقدم إلى الأجيـــــال صـــورة رمزيـــة لبشاعة العلاقة بين الحـــــاكم والمحكـــوم الذيـــن أوقعتـــهم الأقـــدار تحت رحمته ، فاضطرهم بقســـوته واســـتبداده ، ومنطقـــه المتألـــه ، إلى أن يمدحوه ذلك المـــدح الـــذى يتحـــول بطبيعتـــه إلـــى لـــون رمزى من ألوان الـــــهجاء " [2]

-هذه المدائح كانت فى سن الطفولـــة الأدبيـــة :-

يشير الزبيرى فى دفاعه عن هـــذه القصـــائد ، أنـــها تمثـــل مرحلة الطفولة الأدبية " ... ووراء ذلـــك كلـــه ، فتلـــك هـــى ســـن الطفولة الأدبية والوطنية وذلك هـــو منطقـــها الـــذى عشـــناه ، وإذا

---

[1] ديوان الزبـــيرى ص ٧٧ .

[2] ديوان الزبـــيرى ص ٧٩ .

كان فى الناس اليوم من قد تطوروا واجتازوا هذه المرحلة بعيداً ، فلا يستطيع أحد أن يدعى بأن الشاعر متأخر عنهم فى هذا التطور ، وهو مع التواضع والخجل الشديد مضطر فى سبيل تبرير المراحل الأدبية الماضية أن يذكر ولم يتذكر بأنه ولله الحمد ممن ساهموا فى صنع التطور الثورى " [1] .

ومعنى هذا أنها كانت مرحلة طفولة أدبية استطاع أن يتجاوزها . ويتطور شعره دفاعاً عن الثورة .

-هذا المدح ليس قاعدة فى شعره :-

يعترف الزبيرى بوجود لحظات ضعف فى حياة كل إنسان ، وهى تشكل الاستثناء وليس القاعدة ، ويجب ألا نتوقف عند لحظات الضعف النادرة فى حياة الإنسان لنرسم له صورة فى هذا الضعف ونعتبرها المعيار والحكم عليه " على أن المعيار الحق فى وزن أقدار الرجال وآدابهم وأشعارهم لا يتجه إلى الاستثناءات والمواقف المؤقتة والجانبية والسطحية ، وإنما ينبغى أن يتجه إلى تقسيم الاهتمامات الرئيسية ومظاهر السلوك وأهدافه ، والطابع العام الأعمق والنهايات الكبرى .

تلك ما ينبغى للمصنفين أن يصفوها فى الميزان عندما يدرسوا حياة الناس وآثارهم كبشر ، لا كمخلوقات خرافية ، أو ملائكية سماوية ، وهذا التمييز بين ما هو رئيسى وثانوى ،

---

[1] الديوان ص ٨٠ .

وبين ما هو حقيقة جوهرية ، وعملية تحـايل فـى سـبيل الحقيقـة هو الطريق الآمن السـوى " [1] .

هل فرغ الزبيرى من تبريره لمدائحـه ؟ ، لـم يفـرغ بعـد إنه يحس أنه ارتكب إثمـاً عظيمـاً راح يـبرره ، بنيتـه الصادقـة تارة ، وبمرحلة الطفولة أخـرى ، وبأنـه استـثناء فـى شـعره ، وقد سمى هذا المـدح بالوثنيـات ، تشـبيهاً لـه وللإمـام بعبـادة الأوثان ، التى تاب منها وأناب ، وقـد حـذف هـذه القصـائد مـن ديوانه فهو يقول فى تقديم قصيدة مـن قصـائده " وليـس البـاعث على إثبات هذه القصيدة فـى هـذه المجموعـة ، مجـرد الحـرص على استكمالها ، فقد كان يمكـن إهدارهـا كغيرهـا مـن القصـائد الوثنية التى قلناها فى دور الطفولـة الوطنيـة ".[2]

هو إذن يسمى قصائد المدح هـذه بـ " الوثنيـات " وهـو قد حذفها من شعره أو أهدرها وأسقطها علـى حـد تعبـيره .

على أن الشـاعر قـد مـدح الإمـام أحمـد بعـد أن مـدح الإمام يحيى ، وبعـد أن وصـل الـى هـذا اليقيـن الثـورى ، أن الحاكم لن يرضى عنه ولا عن الثـوار ، إلا إذا أصبحـوا كالشـعب يقاد فى سلاسة ولين . فما الذى دفعه إلـى المـدح ؟

لم ينس الشاعر أن يدافع عـن تلـك القصـائد التـى مـدح بها الإمام أحمد ابن الإمام يحيى هناك فـى تعـز .

---

[1] الديـوان ص ٥٩ .

[2] الديـوان ص ١٨٢ .

لقد خدعهم الإمام بثورته ورفضه للظلم :-

يرسم الزبيرى صورة للإمام أحمد فى ذلك الوقت " فقد كان رمز الأمل ومناط الرجاء فى القضاء على أسباب الفساد المعروف عن حاشية الإمام يحيى ، وكان رجال الحاشية يرتعدون من المستقبل كلما تذكروا " أحمد " حتى لقد أرسل عصابة من رجاله وحرسه ، فأحرقوا قصر أحد رجال الحاشية ، بعدما اشتد تذمر الناس منه وهو السيد على لطفى ... لقد استطاع هذا الرجل الممثل الداهية أن يجعل البلاد تعيش – من ألاعيبه – فى مسرحية مبرمة فصولها ، محكمة أدوارها . فهو يغضب من أبيه ، ويثور ، ويبكى أحياناً ، ويتوعد أحياناً وإنه ليتأوه على سجناء الشباب حتى كأنه أخ لهم حميم ! وكان يقوم بدور إطلاق سراحهم وتأمين ساحتهم ، ومطارحتهم الأفكار ، والأشعار فى مجالسه فى تواضع وانطلاق وتحرر ... " [1]

وعلى هذا الأساس قدم الزبيرى عصارة غالية من شعره إلى الإمام أحمد ينفخ فيه روح الطموح والبطولة ملتمساً لبلاده المجد والتطور والإصلاح .

ولكن الثوار وجدوا فى الإمام أحمد أحلاماً خداعة ، وانقلب ولى العهد على مرّ الأيام إلى طبيعته ، وأعلن أنه

---

(1) الديوان ص ٨٤ .

سيلقى الله ويـــده مخضبـــة بدمـــاء الأدبـــاء ، " وأن مـــن يقـــرأون كتب طه حسين والعقاد والرافعـــى ســـيلقون المـــوت ... " [1]

وقد يبـــدو الخطـــب هينـــا مـــع الشـــاعر الزبـــيرى ، فقـــد اعترف بأن مدحه للإمام من الوثنيات ، وبرر لـــهذا المـــدح كثـــيرا كثيرا ، ولكن مبالغة الشاعر فـــى الاعتـــذار عـــن هـــذه القصـــائد ، أعطت انطباعا غير صحيح عـــن هـــذه المدائـــح ، فالنـــاس جبلـــوا على قياس الجرم بقدر الاعتـــذار ، وقـــد اعتـــذر الشـــاعر كثـــيرا ، فلابـــد أن يكـــون الجـــرم كبـــيرا ، خاصـــة وأن كثـــيرا مـــن هـــذه القصائد قد أهـــدرت وضـــاعت ، ومـــن هنـــا فإننـــا سنســـوق آراء النقاد فى هذه القصائد ثم نعقب علـــى ذلـــك .

مدح الزبـيرى للأئمـة مـن وجهـة نظـر النقـاد :

-مدائح الزبيرى لا تستحق كل هـــذا الاعتـــذار :-

من النقاد الذين كتبوا عن الزبـــيرى وأنصفـــوه ، الدكتـــور عبد العزيز المقالح ، وقد تناول مـــدح الشـــاعر للأئمـــة فـــى كثـــير من كتبه ، وناقش هذا المـــدح ، ودافـــع عـــن الزبـــيرى وأنصفـــه أيما إنصاف . وذلك فى تلك المقدمتيـــن الضـــافيتين فـــى الديـــوان – ديوان الزبيرى – وفى كتابـــه " الأبعـــاد الموضوعيـــة والفنيـــة لحركة الشـــعر المعـــاصر فـــى اليمـــن . وهـــو فـــى دفاعـــه عـــن الزبيرى ، قد ساق كل التبريرات التـــى دافـــع بـــها الزبـــيرى عـــن نفسه .

---

[1] الديـــوان ص ٦٣ .

فالزبيرى لم يمدح ، وإنما كان يسيس الشعر فيجعله - كما يقول - رائدا يستكشف به أغوار الإمام الطاغية ، وكتب هذه القصائد مستعطفا وشاكيا من هول ما يلاقيه المناضل فى سجون الإمام من بطش وتنكيل ، وأن هذه القصائد كانت الوسيلة الوحيدة والصوت المسموع .[1]

ويشير المقالح مرة أخرى إلى أن هذه المبررات التى قدمها الزبيرى لقصائد المدح التى سماها بالوثنيات ، هى مبررات حقيقية تكفى لتبرير كل مديح قاله ويقوله الشعراء على وجه الأرض .[2]

وإذا كان الدكتور المقالح قد التزم فى مقدمة الديوان بتلك المبررات التى ساقها الزبيرى ، فإنه فى كتابه " الأبعاد الموضوعية " قد عرض لتلك المدائح من خلال رؤية فنية واجتماعية غير متأثر بمرافعة الشاعر عن نفسه ، ولا بآراء خصومه السياسيين الذين لا علاقة لهم بالأدب .

وقد عقد فصلا فى كتابه للأبعاد الفنية وتحدث فيه عن المديح والرثاء ، ثم عرض لمدائح الزبيرى قائلا : " كان الشاعر الكبير بعد عشرين عاما تقريبا من كتابة هذه المدائح الوثنية - على حد تعبيره - قد وقف مع نفسه فى مواجهة نقدية ، عرض فيها للظروف الاجتماعية والنفسية

---

(١) مقدمة ديوان الزبيرى : بقلم د. عبد العزيز المقالح .

(٢) مقدمة ديوان الزبيرى : ص ٤٥٥ .

والسياسية التى أحاطت بمولـــد هــذه القصــائد ، ومــا قــد كــان يستهدفه من ورائها قبل مرحلة اليقين الثــورى مــن إصــلاح "[1]

وبعد ذلك عــرض لقصــائد المــدح مــن الوجهــة الفنيــة مؤكــدا أن المــبرر الفنــى ، يــوازى المــبررات السياســية والتاريخية . فكيــف تعــرض المقــالح لتلــك القصــائد بالدراســة الفنية .

يقول المقالح " فى هذه القصــائد القليلــة ، تتجلــى قــدرة الشاعر على تحميل الأغراض القديمــة مضــامين جديــدة ، تخــرج أحيانا بها عن مناسباتها التقليدية . فـــهو يمتــدح ولــى العــهد – الذى أصبح فيما بعد إماما– يمتدحـــه بقولـــه :–

واسمح فقد أوتيت بالعدل والمنـــى

وسواك يسعى للنجـــاح فيخفــق

وملكت شعبا لا يحطم أنفـــه

رمى يصيب ولا قذائف ترشـــق

قل للألى سلبوا الشعوب حقوقـــها

إن لم تردوا حقنا فتصدقـــوا

ما أكثر الأسلاب فى أيديكـــم

لو كان يغنى سارق أن يســـرق

---

[1] الشعر المعاصر فى اليمن : المقالح ص ٩٩ .

جعتم وملك الأرض تحت نفوذكـــم

إن الغنى مع التلصص مملـــق

لا أدرى إن كان الشاعر هنا يمـــدح أم يـــهاجم ؟

يتقدم بالزلفى للحاكم أم إلى الشعب ، ورغم مـــا قيـــل مـــن أن الشاعر قد كـــان مخدوعـــا بـــهذا الممـــدوح منفعـــلا بألاعيبـــه التقدمية ، فإن ممدوحه الأكبر هو الشـــعب ، ومـــن خـــلال العســـل (المدح) كان يقـــدم الســـم (الـــهجوم والتعريـــض) . وإلا فمـــن هم أولئك الذين سلبوا الشعوب حقوقها ؟ ومـــن اللصـــوص الذيـــن جاءوا وملـــك الأرض تحـــت نفوذهـــم ؟ علـــى أى حـــال لابـــد أن يكون الإمام الممدوح واحدا منهم ، واحـــدا مـــن اللصـــوص الذيـــن لا يشبعون ، وهذا أســـلوب جديـــد فـــى المديـــح يمكـــن أن يســـمى بالمديح الاجتماعى ، لم تعرفه اليمـــن قبـــل الزبـــيرى ، وإن تكـــن قد عرفت – فى قرون سلفت – شيئا مـــن المديـــح السياســـى .

وكمـــا كـــان يفعـــل بعـــض مشـــاهير الشـــعراء العـــرب الأقدمون أمثال المتنبـــى الـــذى كـــان يؤكـــد وجـــوده دائمـــا إزاء ممدوحه ، فإن الزبيرى فى مـــدح الإمـــام كـــان يحـــاول أن يؤكـــد وجود الشعب إزاء هذا الحاكم الباطش . وهى خطـــوة أولـــى نحـــو تحويل الشعر كله للشـــعب .

–المدح يرسم للحاكم الأهـــداف الصحيحـــة :–

الأبيات التالية من قصيـــدة أخـــرى للشـــاعر يتوجـــه بـــها إلى نفس الحاكم الممدوح وسط معركة دارت بيـــن الشـــعر والنـــثر

، وفيها – كما فى سابقتها – مــــدح ظــاهر يخفــى الشـــاعر مـــن خلفه مشاعر السخط والألــــم ، وفـــى الأبيـــات أيضــا لـــم تتحقــق سوى فى خيـــال الشـــاعر ، فقــد رأى الشـــعب اليمنـــى – بعيـــن الشعر والأمل – وقد نفض عن نفســـه الـــتراب وخـــرج مـــن بيـــن الأشواك والأحجار علـــى أيـــدى حكامـــه " المخلصيـــن " .. المخلصين – تفاؤلا – من خــــلال رؤيـــا الشـــاعر ، والخونـــة فـــى الواقع والحقيقة ، وكان الشاعر يظن – كمـــا اعـــترف فيمـــا بعـــد – أن فى مقـــدور الشـــعر أن يغـــرى بـــالإصلاح وأن يحـــرك فـــى الحكام إلى إلى مدين أشواق البطولـــة وأحـــلام المجـــد بمـــا يضـــع فى أيديهم من نماذج ، وبما يلقنهم من أهـــداف الحكـــم الصحيـــح

بعثت شعبا دفينا كان منطبقـــا
عليه ترب وأشواك وأحجـــار
فقام نحوك يلقى الترب فى يـــده
فتخلى عنك أوصاب وأكـــدار .
يرى بأنك من يهوى فليس لـــه
فى غير ذكرك تهيام وتســـيار
يرى بوجهك آمالا تســـجلها
لنا شهور وأعوام وأعصـــار

أرأيت إلى الشاعر كيـــف يلقــن الحــاكم طــرق الإصـــلاح عارضا بذكاء شديد الحقيقة التى ثبتـــت أن الشـــعب مدفـــون تحـــت ركام من تـــــراب الظـــالم والأشـــواك والأحجـــار ؟ وان باســـتطاعة هذا الحاكم — لو أراد — أن يخلو عنـــه الأوصـــاب والأكـــدار .

والشاعر لا يكف عن محاولة التلقيـــن والإغـــراء بأشـــواق البطولة وأحلام المجـــد :

يا حامل الشعب الكبير بقلبـــه

الشعب فى طيات قلبك يخفـــق

جدد له عهد الجدود بعزمـــة

لو تجذب الماضى لجاءك يشـــرق

لا تبنه حجرا ولكن فيلقـــا

ينساب فيه للمنايا فيلـــق

واجعل بمنفسح الهواء طريقـــة

فالبر عن خطو العزائم أضيـــق

وارفع على قنن السماء قلاعـــه

فالأرض توطأ بالنعال وتطـــرق

وابن الخنادق من قلوب رجالـــه

فالصخر يحطم والحديد يطـــرق

قاع الرمال مع البطولة جنـــة

وذرى الحصون مع المذلة مـــأزق

وهنا يبدو الشاعر مرة أخـــرى – وعلـــى الرغـــم مـــن أن العملية الأدبية كلـــها عمليـــة إغـــراء وتلقيـــن – يبـــدو وكأنـــه لا يمدح ، بل يأمر ، إنه لا يستجدى الإصـــلاح والتغيـــير بـــل يطـــالب بهما بإلحاح . ألا تلمس ذلك فـــى قولـــه " جـــدد " وفـــى " لا تبنـــه حجرا " و " اجعل " و " ارفع " إلى آخر أفعـــال الأمـــر التـــى لا شـــك فى أنها قد كـــانت تـــنزل علـــى رأس ذلـــك الممـــدوح كـــالقذائف المتوالية الانطـــلاق " [1] .

لقد حاول الدكتور عبد العزيز المقـــالح أن يـــدرس قصـــائد المدح دراسة فنية ، يستخرج من خلالها أن المـــدح كـــان غرضـــه حث الممدوح على الإصـــلاح والتغيـــير .

وهنا بهذه النظرة الفنية نؤكد إلـــى أننـــا قـــد وصلنـــا فـــى تفسير المدح على أنه دعوة إلى الإصـــلاح والتجديـــد ، مثلمـــا قـــال النقاد فى تفسير شعر المدح عنـــد حـــافظ .

ولم يكتف المقالح بهذا بل راح يدافـــع عـــن الزبـــيرى ضـــد من فسروا المدح عنده بأنه أســـاء إلـــى وطنيتـــه . وقـــد رد علـــى هؤلاء الخصـــوم ومنـــهم زيـــد الوزيـــر فقـــال " ويبـــدو أن هـــذه الحيثيات التى لا مبرر لها فى نظرى لـــم تقنـــع خصـــوم الزبـــيرى الشخصيين ، بل لقد فتحت الباب علـــى مصراعيـــه أمـــام أصدقائـــه المتحاملين أمثال زيد الوزير إلى أحكام جـــائرة فـــى حـــق شـــاعرنا

---

[1] الشعر المعاصر فى اليمن : د. عبد العزيز المقالح ص ١٠٢ .

فقد خرج زيد من خلال مقارنة متعسفة بين حافظ إبراهيم والزبيرى إلى أنه ليس بشاعر الشعب من توزع شعره بين الكوخ والقصر وبين الطاغية والشعب " [١] .

والفرق كبير جداً بين حافظ والزبيرى ، فالأول قد تورط فى مدح الإنجليز كما حاول أن ينافس شوقى فى الحصول على لقب شاعر القصر ، وهو لم يتصدر الحركة الوطنية فى بلاده بل كان ينأى عن الحياة السياسية وفى آخر حياته بخاصة . ومع ذلك فلم تمنع هذه المواقف الدارسين من أن يغدقوا عليه الألقاب ومنها لقب " شاعر الشعب " هذا الذى يستكثره زيد الوزير على الزبيرى " .[٢]

وفى الحقيقة فإن اعتذارات الزبيرى كما قلت سابقاً ، أعطت انطباعاً بأن الجرم كبير مع أن هذه المدائح لو درست فى ظروفها وظروف إنشادها ، ، وكمرحلة اختيارية ينظر فيها إلى مدى استجابة الأمير ، وحتى لو درست فى إطارها الفنى لتبين لنا أنها كانت تعد من الوطنية فى أيام الزبيرى . ولو افترضنا أن هذه المدائح كانت لغرض شخصى لم ينله الشاعر ، ألا يكفى سجن الشاعر وغربته وفراره إلى عدن والباكستان والقاهرة وقصائده فى الدفاع عن وطنه وثورته على الأمراء والإنجليز والخونة ، وتبريراته الدائمة واعتذاراته المستمرة لتجعله شاعر الشعب ؟ .

---

(١) دراسات فى الشعر اليمنى القديم والحديث ص ١٨٤ ، زيد الوزير .

(٢) الشعر المعاصر فى اليمن : د. عبد العزيز المقالح ص ١٠٠ .

لقد حاول زيد الوزير أن يحاكمه من خلال تلك القصائد وحدها مع تجريدها من ظروفها وسياقها ونضال الشاعر وقصائده الوطنية بعد ذلك ، فتعسف فى حكمه ، وتعسف خصومه أيضاً ، وأعتقد أن هذه خصومات سياسية جنت على شعره ، وقد سجل الشاعر ذلك حين قال : " فروحانيتى جنى عليها الأدب ، وأدبى عوقب بالسياسة فزجت به فى المعارك المريرة الطويلة المدى ، وانتقمت منه شر انتقام " [1] .

*ولا يتوقف الدكتور المقالح عن الدفاع عن الزبيرى كلما واتت الفرصة ، وقد واتته الفرصة وهو يعرض لقصيدة الزبيرى تحت عنوان " رثاء شعب " والتى بدأها إثر مصرع الثورة اليمنية سنة ١٩٤٨م ، وهو مطارد فى الهند ، واسمه مسجل فى القائمة السوداء بمصرفى عهد فاروق ، فلما سقط الطاغية وقامت ثورة يوليو ، أتم المرثية فى حدائق قصر المنتزه بالأسكندرية بعد أن أصبحت ملكاً للشعب والتى يقول فيها :-

ما كنت أحسب أنى سوف أبكيه
وإن شعرى إلى الدنيا سينعيه

وأننى سوف أبقى بعد نكبتيه
حيا أمزق روحى فى مراثيه

وأن من كنت أرجوهم لنجدته

---

[1] ديوان الزبيرى ص ٦٠ .

يوم الكريهة كانوا من أعاديـــه

ألقى بأبطاله فى شر مهلكـــة

لأنهم حققوا أغلى أمانيـــه

قد عاش دهراً طويلاً فى ديـــاجره

حتى انمحى كل نور فى مآقيـــه

فصار لا الليل يؤديه بظلمتـــه

ولا الصباح إذا ما لاح يهديـــه

فإن سلمت فإنى قد وهبت لـــه

خلاصة العمر ماضيه وآتيـــه

وكنت أحرص لو أنى أموت لـــه

وحدى فداء ويبقى كل أهليـــه

لكنه أجل يأتى لموعـــده

ما كل ما يتمناه ملاقيـــه

وليس لى بعده عمر وإن بقيـــت

أنفاس روحى تغذيه وترثيـــه

إلى أن يصل الشاعر إلى قوله مخاطبـــاً الشـــعب :

يا شعبنا نصف قرن فى عبادتـــهم

لم يقبلوا قرباناً تؤديـــه

رضيتهم أنت أربابا وعشت لـــــهم

تنيلهم كل تقديس وتأليـــه

لم ترتفع من حضيض الرق مرتبـــــة

ولم تذق راحة مما تقاســـيه

ولا استطاعت دموع منك طائلـــــة

تطهير طاغية من سكرة التيــــه

ولا أضخت إلينا معشرا وقفـــوا

حياتهم لك فى نصح وتوجيــــه

نبنى لك الشرف الغالى فتهدمــــه

ونسحق الصنم الطاغى فتبنيـــه

نقضى على خصمك الأفعى فتبعثـــه

حيا ونشعل مصباحا فتطفيـــه

قضيت عمرى ملدوغا وها أنـــذا

أرى بحضنك ثعبانا تربيـــه [(١)]

لقد كان ضمن نقدات زيـــد الوزيـــر للزبـــيرى ، أنـــه كـــان ينظر إلى القضية الوطنية مـــن خـــلال الإمـــام ، وكمـــا يقـــول هـــو بلغته " أنه يتحسس آلام الشـــعب عـــبر ســـوطه " وأن النـــاقد لـــم يعثر على ملامح الشعب عنـــده إلا مـــن خـــلال الأضـــواء المركـــزة

[(١)]دراسات فى الشعر اليمنى القديم والحديث ص ٨٧ .

على الطاغية. وقد وجـــد الدكتـــور المقـــالح فـــى هـــذه القصيـــدة فرصة مناســـبة لدحــض كـــلام زيـــد الوزيـــر ، فـــهاهو الزبـــيرى يتحدث من مقعد الشـــعب ، وفـــى مواجهـــة عدائيـــة مـــع الحكـــم الإمـــامى . يقـــول الدكتـــور المقـــالح " إن الزبـــيرى فـــى الأبيـــات السابقة يحاسب الشعب علـــى تغافلـــه – بعيـــداً عـــن الطاغيـــة – وهو يحمله مسئولية ما وصل إليـــه مـــن اســـترقاق وإذلال ، لأنـــه وحده صانع الطغاة ، وهو وحده القـــادر علـــى الخـــلاص منـــهم . وبعد أن ينهى الشاعر حسابه الواعى مـــع الشـــعب ، الـــذى ينتظـــر الحياة من الجلاد ، والعلاج من حفار القبـــور ، يبـــدأ مـــن المقطـــع الثانى فى عرض دعاوى الحكـــام الذيـــن أســـكرهم بريـــق الفـــوز المؤقت فتصوروا أن الشعب قد استســـلم لـــهم إلـــى الأبـــد ، وأنـــه لن تقوم له قائمة بعد ذلك اليـــوم المشـــئوم ."[1]

إنه لا يدافع عن الزبـــيرى فـــى موقـــف معيـــن وفقـــط ولا يدافع عنه فى كتاب عن الزبيرى ، ولكنـــه مشـــغول بـــه فـــى كـــل قضية ، فهو يتحدث عن البعد الوطنـــى عنـــد الشـــعراء اليمنييـــن ، وعندما يعرض للزبيرى وقصائده الوطنيـــة ، يتذكـــر نقـــدات زيـــد الوزير للشاعر ، فيعرج على تلـــك النقـــدات مفنـــداً لـــها . حـــدث ذلك فى القصيدة الســـابقة ، وحـــدث فـــى قصيـــدة أخـــرى تحـــدث عنها قـــائلاً : –

ومن أشهر وطنيـــات الزبـــيرى ســـوى وطنيتـــه الســـالفة ، بل من أكثرها تداولاً كذلك خلال هذه الفـــترة أبيـــات مجـــتزأة مـــن

---

[1] الشعر اليمنى المعاصر : د. عبد العزيز المقالح ص ١٦٢ .

قصيدة طويلـــة كــان الشــاعر قــد ألقاهــا فــى ذكــرى الزعيــم الباكستانى محمد على جناح ، وفى هــذه الأبيــات يصــور الشــاعر شعور الجماهير الغاضبــة ودورهــا الحاســم فــى تحقيــق آمالــها البعيدة واسترجاع الحقوق المغتصبــة للوطــن:

أمم الأرض لا يرقعها الـــرا

قع ترقيع ثوبه وكســـائه

ومصير الشعوب كـــالحق

لا يبنيه بان بوهمه وادعائـــه

والملايين لا تعيش على الشـــك

ولا تستقر فوق هبائـــه

هو خلف فى الروح ما قيمة الـــرأى

السياسى فى لظى هوجائـــه

مرجل الشعب لا يبـــالى إذا

ثار بأقطابه ولا زعمائـــه

وشعور الجمهور أقوى مـــن

العقل ومن حكمه ومن حكمائـــه

ثم يعلق الدكتور المقـــالح علـــى هـــذه الأبيــات بقولــه : " مرة أخرى أدعو الصديق الناقد زيـــد الوزيــر إعـــادة النظــر فـــى حكمه السابق على الزبيرى الشاعر الـــذى تضيـــع منـــه الجمـــاهير

أثناء تركيزه علـــى دور الفــرد ، فــأى تقديــر لوجــود الجمــاهير كهذا الذى تنبض به هذه المقــاطع " [1] وأنــا اعتقــد أن النــاقد زيد الوزير لم يقصــد اعتــداد الشــاعر بــالفرد الحــاكم وإهمــال الشعب فى كل قصائده ، أو فى كـــل مراحــل حياتــه . وإنمــا فــى فترة محدودة وقصائد محددة هى التى مدح بــــها الإمــام .

*الزبيرى يدافع عن مدائحــــه :

وإذا كان حافظ قد وجد من يدافع عنــــه فقــد دافــع محمــد محمود الزبيرى عن نفسه فـــهو يوضــح أن مدائحــه هــذه كــانت مرحلة من المراحل ، وتجربــــة مــن التجــارب وهـــى ليســت أول تجربة فقد خاض الثوار تجارب عديدة قبــــل ذلــك .

يقول محمــــد محمـــود الزبـــيرى عــن ذلــك " لقــد كــانت التجربة الأولى هى تجربة الرعيل الأول مـــن رفاقنـــا ، نبـــغ فريـــق منهم من الأرض اليمنية عن طريق المطالعـــات للكتـــب الحديثـــة ، ووفد آخــــرون عـــائدين مـــن بغـــداد ، بعـــد أن أنـــهوا دراســـتهم العسكرية ، كـــانت تجربتـــهم التبشـــير بأفكـــار عصريـــة بحتـــة ، ونقلها إلى شعبهم كما هى ، وهـــو شــعب – كــان – لــم يعــرف أى شئ عن العصـــر الحديــث ، وكــان لـــهذا الأســلوب رد فعــل شعبى ورسمى مضاد ، وشاعت عنــــهم حكايـــة الاختصــار للقــرآن الكريـــم كذبـــا وبـــهتانا ، ولكنـــها شـــاعت لأنـــهم لـــم يتخــــذوا الاحتياطات ضد قبول مثل هذه الإشاعات . وكــــان كــل هــذا شــيئا

---

[1] الشعر المعاصر فى اليمن : د. عبد العزيز المقالح ص ١٦٥ .

طبيعيا ، لأنها التجارب الأولى ، وسهل على الحكم الرجعى أن يلغى وجودهم بالسجن ، وكان يطلب ما هو أكثر من السجن"[1]

إذن فقد جرب الثوار من الشباب طريقة إطلاع الشعب على التقدم الحاصل فى غير بلادهم ، وحاولوا إفاقتهم من ثباتهم فلفقت السلطات لهم تهمة جعلت الشعب يطالب بأعناقهم وهى تهمة العبث بالدين ، واختصار القرآن . وراح الرعيل الثانى ومنهم محمد محمود الزبيرى يعملون على نشر دعوتهم عن طريق الدين ، وعندها رأوا أنفسهم فى السجن أيضا .

وكانت التجربة الثالثة أكثر لينا ، وهى تجربة مدح الحكام والساسة . يقول محمد محمود الزبيرى " ورأينا أن التاريخ سيحكم علينا بالتهور والتسرع ، إذا لم تكرر التجارب بطرق أكثر لينا . فالعامل الإنسانى يجب أن يراعى حتى بالنسبة إلى حكام يسيطرون على مقدرات الشعب بغير حق .

والله سبحانه وتعالى يقول لموسى وهارون عليهما السلام وهو يبعثهما إلى فرعون " فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى " ومن هنا نشأت فكرة التطامن للعاطفة ، بعد أن وجدنا أنفسنا سجناء " جبل الأهنوم " وظهرت الثقة بمقدرة الشعر على إقناع الحكام بأننا لسنا أعداء ، بل إننا أبناءهم

---

[1] الديوان ص ٩٨ .

البررة ... وقد نجح الشعر هنـــا فـــى إقناعـــهم بأننـــا لســـنا لـــهم بالأعداء فأطلقوا سراح البعض بعد تســـعة أشـــهر.[1]

ولكن هذه الطريقة أيضـــا لـــم تنجـــح ، لأن الحكـــام ظنـــوا أن بإمكانهم أن يشتروا هـــؤلاء الثـــوار بـــالمنصب والمـــال ، وقـــد وصل الثوار إلى قناعة بأنه لا تغيير لـــهؤلاء الأحكـــام إلا بـــالقوة

ويبرر الزبيرى مرة أخرى لمدائحه بقولـــــه : " ولقـــد كـــان شعر المدح فى هـــذه الفـــترة البدائيـــة هـــو الرائـــد والمستكشـــف الأول ، وهو المجس العميـــق الدقيـــق الـــذى تغلغـــل فـــى أغـــوار نفس الإمام ، وأعطانا المقـــاييس والمعـــايير لتقديـــر الحـــد البعيـــد الذى ذهب إليه الطاغية من التأله والقـــوة والاســـتعلاء والإصـــرار ... وأنا أذكر أن قصيدتى فـــى استعطـــاف الإمـــام والشـــكوى مـــن أهوال السجن ، انتشرت فى صفوف الشعب انتشـــارا ســـريعا قبـــل أن تصل النتيجـــة المرســـلة إلـــى الإمـــام ، وأنـــها أحدثـــت أثـــرا عاطفيا فى صالح الأحـــرار المعتقليـــن ، وحســـنت نظـــرة الشـــعب إليهم ، وهيأت الشعب لنقد تصرفـــات الإمـــام ، ورغـــم أنـــه كـــان فيها استعطاف ومدح للإمـــام يحيـــى ، فقـــد كـــانت تنطـــوى علـــى وصف لآلام السجن ، قصدت بـــه تســـجيل هـــذه الحقيقـــة تاريخيـــا فى صورة ضراعة واســـــترحام " [2]

---

[1] ديوان الزبـــيرى ص ٧٠ .

[2] ديوان الزبـــيرى ص ٧٧ .

ويعطينا محمد محمود الزبيرى مبررا آخر لشعر المدح يسوقه الزبيرى فهو قد تحدث عن آلام السجن بقصد تسجيل هذه الحقيقة التاريخية ، وقد حاول بهذه المدائح تحسين صورة الثوار عند الشعب ، وقد بالغ فى المدح ليقدم للأجيال صورة رمزية لبشاعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم .

يقول محمد محمود الزبيرى : " ومن جهة أخرى فإن المبالغات فى المدح والشكوى والاستعطاف ، يقدم إلى الأجيال صورة رمزية لبشاعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم الذين أوقعتهم الأقدار تحت رحمته ، فاضطرهم بقسوته واستبداده ، ومنطقه المتأله ، إلى أن يمدحوه ذلك المدح الذى يتحول بطبيعته إلى لون رمزى من ألوان الهجاء " [1]

ويختتم الزبيرى دفاعه عن هذه المدائح بوصف تلك المرحلة بأنها كانت سن الطفولة الأدبية والوطنية " .

*ما مضى من تبريرات من الشاعر محمد محمود الزبيرى كان بالنسبة لقصائده فى الأمام يحيى ، ويبقى أنه قال بعد ذلك قصائد فى مدح ولده أحمد بعد توليه الحكم بعد أبيه ، فماذا هو قائل فيها ؟ .

يشير محمد محمود الزبيرى إلى شخصية الإبن ، المتذمر من رجعية أبيه ، المتحدث عن فساد حكمه ، الذى أرسل عصبة من رجاله فأحرقوا قصر أحد رجال الحشية بعد

---

[1] ديوان الزبيرى ص ٧٩ .

ما اشتد تذمر الناس منه ، هو يغضب من أبيه ، ويثور ويبكى ، ويتوعد ، ويتأوه على سجناء الشباب ، ويقوم بدور إطلاق سراحهم ، وتأمين ساحتهم ، ومطارحتهم الأفكار والأشعار فى مجالسه فى تواضع وانطلاق وتحرر .

هذه الصورة للإمام أحمد بن يحيى ، أعجبت شاعرنا فقدم إليه كما يقول عصارة غالية من شعره : " أنفخ فيه روح الطموح والبطولة ، وأمنحه حماس الثقة ، وأحركه بأحلام الشعراء وأشواق المجد ... " (١)

***خوف حافظ والزبيرى من الساسة والحكام :-**

غريب أمر الشعر ، ومظلوم هو الشاعر ، مذ توارثنا أن الشاعر لسان القبيلة وجهازها الإعلامى ، ونحن نطلب من الشاعر أن يصدع بكلمة الحق ، وأن يدافع عن الوطن ، أن يقف وحده ضد التيار ، أن يجابه المستعمر ويقف فى وجهه .

ويتناسى الناس أن الشاعر فرد عادى ، قد يخاف السجن وقد يخاف على لقمة العيش ، فيصمت وينشغل بأمور أخرى . وعندها يكون الشاعر ، والشاعر وحده غير وطنى ، لأنه خاف وسكت ، مع أن الشعب كله ربما يكون قد سكت ولا يحاسب غير الشاعر ، لأنه ينتظر منه ما لا ينتظر فى غيره ، والسؤال المطروح هنا : هل خاف حافظ ؟ والإجابة : نعم

---

(١) الديوان ص ٨٤ .

خاف حافظ من الإنجليز ، وخاف على لقمة عيشه فى دار الكتب . وهل خاف الزبيرى ؟ نعم خاف الزبيرى .

ولكن من خلال البحث يتضح لنا الفرق بين خوف حافظ وخوف الزبيرى ، فالزبيرى خاف وسكت ، أما حافظ فقد خاف فمدح .

-خوف حافظ من الساسة والحكام :

لقد اتهم حافظ بالمشاركة فى الثورة ، وأحيل إلى الاستيداع ، وطلب الإحالة إلى المعاش ، وأجيب إلى طلبه ، وظل الخوف يطارده من الإنجليز فرثى مليكتهم التى ماتت ، وهنأ ملكهم إدوارد الذى تولى بعدها .

وظل مذعور القلب فى غير ذعر كما قال الشيخ محمود شاكر : " فقد كان إنسانا مذعور القلب فى غير ذعر ، قليل الحمل للمشقة وتكاليفها ، كثير الشكوى والتبرم من أهون شئ فكان إذا جاءه شعر فيه شئ يخشى أن يؤخذ عليه ، آثر السلامة فطواه وأبى أن ينشره ، كما روى ذلك أكثر الذين عاصروه وصاحبوه ، ولما نشر هذا الشعر بعد وفاته كان أفزع من أن يخافه إنسان من عامة الناس فضلا عن شاعر من خاصة المجاهدين ، ثم إن هذا الذعر فى غير ذعر كان يحمله على اختيار مناسبات يقول فيها شعرا تبرأ منه الوطنية ، ولا يقوله إلا شاعر متكسب أو خائن أو مقتول إن سكت . كان يقوله وهو يعلم كما تعلم أنه لن يأتى بخير كثير

ولا قليل ، ففيم كان غنائه وكده ذهنه إذن ، فأى شاعر اهتدى إلى الحق يخطر على باله أن تموت ملكة بريطانيا التى كانت زمنها بلاء مصبوبا على بلاده فإذا هو يرثيها ويعزى قومها ... " [1]

وعندما سأله زكى مبارك و ألح فى السؤال ، التفت إليه حافظ وقال : ماذا تريدون منى ؟ قلت : نريد قصائد وطنية . قال : والاعتقال ؟ قلت : وما خطر الاعتقال ؟ فأجاب فى هدوء : لن أجد فى المعتقل هذا السيجار " [2] .

-خوف الزبيرى من الساسة والحكام :

لقد سجل الزبيرى لحظات الخوف هذه ، تلك التى منعته من البوح بالحقيقة ورسم لنا هذا الجو المخيف المسيطر على البلاد ثم قال (... وفى هذا الجو الكئيب وصلت إلى صنعاء ، وجاء العيد ، وجاءت معه وفاة القاضى يحيى بن محمد الإريانى) .

وبالرغم من أنى كنت أحيا فى هذه النكبة الشاملة ، إلا أنى لم استطع الانطلاق فى وصفها بحرية إذ كنت أخشى بطشا ظالما أعتى وأقسى من التيفوس ، وإنما تحايلت على وصف النكبة بصورة عامة يتلمس حرارتها أثناء المرثاة) [3] .

---

[1] مجلة الكتاب : أكتوبر سنة ١٩٤٧م ، مقال أوطان ص ١٥٦٩ .

[2] حافظ إبراهيم : بقلم زكى مبارك ص ٦١ .

[3] ديوان الزبيرى ص ٣١٦ .

إذن كان يستطيع الشاعر أن ينطلق بحريته لوصف مأساة هذا الشعب الذى يترنح تحت وطأة المرض والوباء فى طول البلاد وعرضها ، ولكنه لم يستطع لأنه كان يخشى بطشا ظالما . وإذن فقد خاف الشاعر ودفعه خوفه إلى السكوت .

ومرة أخرى تسجل أن الزبيرى خاف على لقمة عيشه ، عمل ، وكان غير راض عن عمله ، وما منعه من ترك العمل إلا لقمة العيش والضرورة إليها .

دعنا نرصد ذلك عندما نستمع إلى تلك الخطابات المخطوطة ، التى نشرها الدكتور عبد العزيز المقالح فى المقدمة الثانية لديوان الزبيرى ، يقول الزبيرى فى رسالة يرد بها على رسالة وردت إليه : " ومن أعجب المصادفات أن الأقدار شاءت أن تسخر منى وأن تهزأ بحياتى فلم يصل كتابك إلى إلا فى الوقت الذى كنت قد تربعت على إمارة سوق الواجبات فى سوق الأحد بوادى من أودية الشرمان بقضاء ماوية . ولما لمحت الكتاب وعرفت العنوان ، شعرت بهزات عصبية عنيفة كانت نتيجة محتومة للصراع الفجائى الذى حدث عندى بين لغة الحياة ولغة الموت ، وبين الخواطر الاجتماعية الحكيمة ، وضوضاء السوق الشرمانية المضحكة . وقد ترفعت بأعصابى وخبأت الكتاب فى حقيبتى وأرجأت الاطلاع عليه إلى فرصة أخرى . كنت فى ذلك الحين مأمور سوق واجبات الشرمان ، ومعنى ذلك أنى قائد لثلة من الجيش والحرس الملكى فى المعركة التى تدور كل سنة على الأقل بين

الأمة والحكومة فى سبيل تحصيل ضرائب الزكاة من الفلاحين الضعفاء الذين لا يقابلون جيوش الزكاة الجرارة إلا بالدموع . وقد تعلمون يا عزيزى أن قائد الجيش يجب عليه أن يخدم التعاليم التى يتلقاها فى الجهات العليا ، ولو كانت تعاليم وحشية بربرية " [1]

ومن هنا نرى أن الزبيرى قد كان يعمل عند الإمام ، ويعمل فى وظيفة لا يرضى ، بل إنها تلزمه أن ينفذ الأحكام ، حتى ولو كانت أحكاما همجية بربرية ، ومع ذلك وحتى مع عدم رضاه ، كان يعمل من أجل لقمة العيش .

والخوف على لقمة العيش ، أو من السجن ، أو من بطش الاستعمار ليس قاصرا على هذين الشاعرين ، فهذه الرسائل التى أرسلها الرافعى إلى محمود إلى آبى رية والتى بدأت بينهما من سنة ١٩١٢ إلى سنة ١٩٣٤م وهى نفس الفترة الأدبية لحافظ إبراهيم تقريبا أو تزيد عنها قليلا نجد الرافعى يقول فى رسالة من رسائله " فأنت لا تعرف الظروف المحيطة بى ، التى جعلتنى أرى السلامة فى السكوت ، واعلم أنى لو نظمت ذلك الرثاء كما يجب أن ينظم ، وفى المعانى التى تليق به ، لرأيت فى الصحف خبر نقلى إلى قنا ، أو ما دونها ، فترك الشعر كنا أجمل " . [2]

المراجع الطبعة الثالثة سنه ١٩٨٤

---

[1] ديوان الزبيرى ص ٤٥٩ .

[2] من رسائل الرافعى : محمود أبو ريه ص ٨١ . دار المعارف بمصر الطبعة الثانية .

وانظر : أضواء على الأدب العربى المعاصر : أنور الجندى ص ٩٨ ، دار الكاتب العربى القاهرة سنة ١٩٦٩م .

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد .

فقد تناول هذا البحث لحظة من لحظات الضعف عند الشاعرين حافظ والزبيرى وقد استطاع البحث أن يثبت أوجه شبه كثيرة من حافظ والزبـيرى من اشتراكها فى الثورة ، وغياب شعر المغزل والطبيعـة فـى شـعرهما ، وكتابة نثرى يشرح فيه الشاعر ما يعتمل فى داخله ، فقد كتب حافظ ليـالى سطيح ، وكتب الزبيرى " ماساة واق الواق " وكلاهما لقب بشاعر الشـعب ، وأخيراً كلاهما قد مدح الساسة والحكام.

تناول البحث أيضاً قصائد حافظ ورفض البحث المقولة التى يقـول بكثرة المدح عن الرثاء فى مدح الساسة والحكام ، ووقف عندهـا مناقشـاً ظروف كل قصيدة ، وقد رفض البحث تعميم الأحكام على كل القصـائد دون نظر إلى تاريخ نشرها وظروفها. وقد ترتب على ذلك رفض مقولات شـائعة لكثير من النقاد ، فقد رفض البحث تعميم الأحكام فى مقال الدكتور شـوقى ضيف " دراسة تاريخية لشعر حافظ إبراهيم ، ورفض البحث الشيخ محمـود شاكر عن قصيدة حافظ فى زواج الشيخ على يوسف ونزعها مـن سـياقها وظروف إنشاءها ومناقشتها كقصيدة وطنية.

ولم يتفق النقاد على تلك القصائد التى قالها حافظ فى مدح الساسة والحكام ، فمنهم من يقول بوطنية ، ومنهم من يجرده من الوطنية ، ومنهم من يلتمس له العذر .

رغبته فى أن يصبح شاعراً للسلطة ، وحث الخديوى على الإصلاح ، ومجاراة شوقى فى هذا الأمر.

والمهادنة والتهكم والخوف من بطش الإنجليز والحرص على الوظيفة والخوف من فقدها أو السجن وأنه مذعور القلب وأكد البحث على ضرورة ربط القصيدة بتاريخ نشرها ، فقصيدة حافظ فى مظاهرة السيدات سنة ١٩١٩م تأخر تشرها فى الصحف إلى سنة ١٩٢٩ وتركها حافظ تذاع بأسماء آخرين . وتلك الظروف التى أحاطت بالقصيدة يجب أن تكون حاضرة فى ذهن الناقد.

وقد تناول البحث قصائد الزبيرى فى الإمام وأولاده وأسرته ، تلك التى سماها بالوثنيات ، وحذفها من ديوانه ، ولكنها تناثرت ونقلها من كتبوا عن الزبيرى من المخطوطات ، وتحدثنا عن ظروف إنشاءها ، وما قاله النقاد عنها ، وخاصة ما ذكره الزبيرى نفسه عن تلك القصائد ، وما قاله الدكتور عبد العزيز المقالح ، وما ذكره زيد الوزير.

ثم تناول البحث الشاعرين ، ونقاط الضعف عندهما ، فكلاهمـــا قـــد خاف من السلطة ، فحافظ قد خاف من الإنجليز ، والزبيرى قد خـــاف مـــن الإمام ، ومنحه الخوف من الكلام ، وقد سجل ذلك بنفسه . وكلاهما وقع فى أسر الوظيفة ، فحافظ قد وقع فى أسر الوظيفة فى دار الكتب وحرص علـــى هذه الوظيفة حرص البخيل على درهمه ، وكذلك فقد عمل الزبـــيرى قـــائداً لثلة من الجيش والحرس الملكى لتحصيل الضرائب من الفلاحين ، ومنعتـــه هذه الوظيفى لبعض الوقت من القيام بواجبه الوطنى ، وقد كان متألم مـــن ذلك وغير راضى عنه ، وملاهما لقب بشاعر الشعب ورضى بـــه ، وفقـــد أنس الزبيرى بهذا اللقب ورضى به فى " تعز "

ولكن الإنصاف يقتضينا أن سجل أن أسر حافظ فى الوظيفة قد طـــال أمده ، من سنة ١٩١١م إلى سنة ١٩٣٢م وهى فترة طويلة مكـــث فيـــها حافظ ، أو تكلم بحذر .

وأما الزبيرى ، فقد كانت هذه القيود ، من وظيفة ، ومدح للساســـة والحكام تشكل لحظات خاطفة فى حياته ، أو كانت هـــى الاســـتثناء وليـــس القاهرة " القاعدة " أن الزبيرى قد ظل طوال حياته يدافع عن وطنه الصغـــير اليمن ، ووطنه العربى الكبير وله قصائد فى مصر ، فى العـــدوان الثلاثـــى

على بورسعيد وقد فاز بالجائزة الثالثة فى المسابقة التى أقامتـــها جريــدة المساء بين الشعراء فى العدوان الثلاثى على بورسعيد ، وله أيضا " ملحمــة بورسعيد " وله قصيدة فى " فلسطين " ، وله قصيدة فـــى " ميــلاد جنــاح والقضية الباكستانية" ، وقصيدة " تحية لصوت عمـــان المكافحـــة وشــعب عمان الباسل المناضل " وله قصيدة " من اطراد اليمن إلى اطراد العــــراق " وفى " سبيل فلسطين ، " الجامعة العربية ترحب بها عند قيامها ، واســتغلال الهند وباكستان . ومن هنا يؤكد البحث على أن هذه القصائد التى مدح بـــها الزبيرى وحافظ الساسة والحكام هى رهن بظروفهما وهى استثناء وليـــس القاعدة ، وشعر الزبيرى لم يوزع بين القصر والكوخ ، أو الإمام والشـــعب وإنما خلص شعره لقضية وطنه وقضيه الأمة العربية.

ويؤكد البحث فى النهاية أن اختيار هذه القصائد للشاعرين يرجــــع إلى طبيعة البحث وموضوعه ، وإلا فحافظ له قصائده الوطنية التى تشـــرفه ، والزبيرى له قصائده الوطنية التـــى تضعـــه فـــى صفـــوف المجـــاهدين المناضلين.

وأسال الله عز وجل أن أكون قد وفقت إلى إضافة لبنة فـــى تـــاريخ أدبنا العربى خدمة للغتنا واقتداء بأساتذتنا الكبار الذى كرسوا جهدهم لخدمة الأدب واللغة ، فجزاهم الله خير الجزاء.

المراجع الطبعة الثالثة سنه ١٩٨٤

١-	١- الأبعاد الموضوعية والفنية لحركة المعاصر في اليمن	د/ عبد العزيز المقالح	در العودة بيروت
٢-	أضواء على الأددب العربى المعاصر	أنور الجندى	دار الكاتب العربى- القاهرة سنه ١٩٦٩م
٣-	البدائع	د/زكى مبارك	الهيئة المصرية العامة للكتاب
٤-	حافظ إبراهيم	د/زكى مبارك	الهيئة المصرية العامة للكتاب
٥-	حافظ إبراهيم شاعر النيل	د/ عبد الحميد سند الجندى	دار المعارف الطبعة الرابعة
٦-	حافظ إبراهيم فى مرائى الناقدين	د/فاروق الميهى	مطبعة السعادة الطبعة الأولى
٧-	حافظ وشوقى	حسن كامل الصيرفى	مارس ١٩٤٨م
٨-	حافظ وشوقى	د/ طه حسين	طبعة وزارة التربية والتعليم سنه ١٩٧٣م
٩-	حديث الأربعاء	د/طه حسين	
١٠ -	دراسات فى الأدب اليمنى الحديث	محمد عبد الله محمد	
١١ -	دراسات فى الشعر اليمنى القديم والحديث	زيد على الوزير	بيروت سنه ١٩٦٤م
١٢ -	ديوان أحمد شوقى	أحمد شوقى	دار نهضة مصر
١٣	ديوان ثورة الشعر	محمد محمود	سنه ١٩٦٢

–		الزبيرى القاهرة	
١٤ –	ديوان حافظ إبراهيم	حافظ إبراهيم	الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثالثة
١٥ –	ديوان الزبيرى	محمد محمود الزبيرى	دار العودة بيروت
١٦ –	ديوان صلاة فى الجحيم	محمد محمود الزبيرى	القاهرة سنه ١٩٦١م
١٧ –	ديوان الفرزدق	الفرزدق	
١٨ –	ذكرى الشاعرين	جمع – أحمد عبيد	المكتبة العربية بدمشق. الطبعة الأولى
١٩ –	الزبيرى أديب اليمن الثائر	عبد الرحمن محمد العمرانى	
٢٠ –	الزبيرى شاعر اليمن	عبد الستار الحلوجى	الزهراء للإعلام – مطبعة الكيلانى الطبعة الأولى سنه ١٩٨٧م
٢١ –	زكى مبارك ونقد الشعر	إعداد : كريمة زكى مبارك	الزهراء للإعلام الطبعة الأولى سنه ١٩٨٧م
٢٢ –	شاعر الشعب	د سامى الدهان	دار المعارف سنه ١٩٥٥م
٢٣ –	شرح ديوان المتنبى	الشيخ ناصف اليازجى	دار در بيروت
٢٤ –	شعراء الوطنية فى مصر	عبد الرحمن الرافعى	دار المعارف الطبعة الثالثة
٢٥ –	شعراء اليمن المعاصرون	هلال ناجى	مؤسسة المعارف . بيروت ١٩٦٦م

٢٦	الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث	مصطفى عبد اللطيف السحرتى	مطبعة المقتطف والمقطم سنه ١٩٤٨م
٢٧	فصول فى الشعر ونقده	د / شوقى ضيف	دار المعارف الطبعة الثالثة
٢٨	فى الأدب الحديث	عمر الدسوقى	دار الفكر العربى الطبعة الثالثة
٢٩	قصة الأدب فى اليمن	أحمد محمد الشامى	بيروت ١٩٦٤م
٣٠	لسان العرب	أبن منظور	طبعة دار المعارف
٣١	ليال سطيح	حافظ إبراهيم	مطبعة محمود محمد مطر بالحمزاوى
٣٢	مأساة واق الواق	محمد محمود الزبيرى	
٣٣	مجلة الكتاب	أكتوبر سنه ١٩٤٧م	
٣٤	مجلة فصول	مارس سنه ١٩٨٣م	
٣٥	مدامع العشاق	د/ زكى مبارك	الطبعة الثانية
٣٦	من رسائل الرافعى	محمود أبو رية	دار المعارف بمصر الطبعة الثانية
٣٧	وطنية شوقى	د/ أحمد محمد الحوفى	الهيئة المصرية العامة للكتاب سنه ١٩٧٨م
٣٨	الوقائع المصرية	١٩ من ديسمبر سنه ١٩١٤م	

ساقطة

من أصل

المصدر

الفهرس

رقم الإيداع بدار الكتب

١٣٤٦٢ / ٩٦

فى ٢٨ / ١١ / ١٩٩٦م

الترقيم الدولى

977-19-2204-1